دار الكتب والوثائق القومية
مركز تحقيق التراث

تراثيات

مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

العدد الأول
يناير ٢٠٠٣

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. صلاح فضل

تراثيات/ مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث بدار
الكتب والوثائق القومية . ـ س ١، ع ١ (يناير ٢٠٠٣)
. ـ القاهرة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ٢٠٠٣ - .
مج ؛ ٢٩سم.
نصف سنوية.

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٣/١٢٢٠٧

تراث

مجلة محكمة يصدرها مركز تحقيق التراث

هيئة التحرير

رئيس مجلس الإدارة:

أ.د/ صلاح فضل

رئيس التحرير:

عبد الستار الحلوجي

نائب رئيس التحرير:

كمال عرفات نبهان

مدير التحرير:

أ. محفوظ الشرقاوي

سكرتير التحرير

أ. نجوى مصطفى كامل

مستشارو التحرير

أحمد شوقي بنبين (المغرب)

أسامة ناصر النقشبندي (العراق)

حسين نصار (مصر)

رضوان السيد (لبنان)

عدنان درويش (سوريا)

فيصل الحفيان (معهد المخطوطات العربية)

يحيى محمود بن جنيد (السعودية)

دار الكتب والوثائق القومية

المراسلات والاشتراكات:

مركز تحقيق التراث ـ دار الكتب والوثائق القومية

كورنيش النيل ـ القاهرة

ت: ٥٧٥١٠٨٦ ـ فاكس: ٥٧٨٩٦٧٨

E-Mail: scenlers@darelkotob.org

سعر النسخة: داخل جمهورية مصر العربية:

١٠ جنيهات للأفراد، ٢٠ جنيها للهيئات.

خارج جمهورية مصر العربية: ١٠ دولار أمريكي

في هذا العدد

تصدير وجيز أ.د. صلاح فضل ٥

افتتاحية العدد أ.د. عبدالستار الحلوجي ٧

التراث وحوار الحضارات أ.د. رفعت حسن هلال ٩

بحوث ودراسات:

١ ـ التراث.. لماذا؟ أ.د/ حسين نصار ١١

٢ ـ هذا هو تراثنا أ.د/ عبد الستار الحلوجي ١٧

٣ ـ تراث فلسطين د/ فيصل الحفيان ٣١

٤ ـ تراثنا العلمي ورحلته إلى الغرب أ.د/ أحمد فؤاد باشا ٤٤

٥ ـ مناهج العلماء المسلمين في دراسة العقاقير والنباتات الطبية أ.د/ كمال الدين حسن البتانوني ٥٦

٦ ـ البيليوجرافيا التكوينية (علاقات النصوص) أ.د/ كمال عرفات نبهان ٨٨

٧ ـ المستشرقون وتحقيق التراث أ.د/ محمد عوني عبد الرءوف ٩٤

٨ ـ علامات التملك علي المخطوطات أ.د/ أيمن فؤاد سيد ١٠٧

من كتب التراث:

رسائل عبد العزيز بن يوسف أ.د/ محمد يونس عبد العال ١٣٢

شخصيات تراثية:

ـ الحسن بن الهيثم المفترى عليه أ.د/ علي حلمي موسى ١٣٨

ـ القاضي الفاضل د/ لبيبة إبراهيم ١٥٠

نصوص من التراث:

الفنائد في حلاوة الأسانيد أ/ مرزوق علي إبراهيم ١٥٧

ببليوجرافيات:

المخطوطات التي حققت كرسائل جامعية في كلية الآداب ـ جامعة القاهرة إعداد/ أحمد عبد الباسط، أحمد عبد الستار ١٨٢

من أخبار التراث:

ندوات ـ مؤتمرات ـ إصدارات جديدة إعداد/ حسام عبد الظاهر ٢٠٣

القسم الأجنبي:

فخر الدين الرازي أ.د/ عفت الشرقاوي ٢٠٥

قواعد النشر...

١ ـ يقبل للنشر بهذه المجلة البحوث والدراسات التي تعنى بالتراث والمخطوطات. كما تنشر ملخصات الرسائل الجامعية المجازة، وتقارير المؤتمرات والندوات التي تدخل في مجال تخصص المجلة، على أن يرفق بالبحث ملخص في حدود ١٠ أسطر أو (١٠٠ كلمة).

٢ ـ يراعى ألا يتجاوز البحث أو المقال ٢٠ صفحة. وبالنسبة للرسائل المحققة يراعى ألا تزيد صفحاتها عن ٤٠ صفحة.

٣ ـ تقدم الأعمال مكتوبة على الكمبيوتر ومسجلة على اسطوانة مرنة (٣,٥ بوصة).

٤ ـ تخضع الأعمال المقدمة للتحكيم العلمي قبل نشرها.

٥ ـ يشترط في البحوث والدراسات والمقالات المقدمة ألا تكون قد نشرت من قبل، وألا يكون قد سبق تقديمها لأية جهة أخرى.

٦ ـ لا تردّ أصول الأعمال المقدمة للمجلة، سواء قبلت للنشر أو لم تقبل.

٧ ـ ترتب المواد داخل العدد وفقا لاعتبارات فنية صرفة.

٨ ـ لا يجوز إعادة نشر أية مادة من مواد المجلة إلا بعد الحصول على إذن كتابي من رئيس التحرير.

٩ ـ تقبل البحوث المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية، على أن يرفق بالبحوث المكتوبة بالإنجليزية ملخص واف باللغة العربية.

١٠ ـ ما ينشر في المجلة يعبر عن وجهة نظر صاحبه، ولا يمثل رأي المجلة بالضرورة.

١١ ـ توجه جميع المراسلات الخاصة بالنشر إلى رئيس التحرير. أو إلى مركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية.

١٢ ـ تمنح إدارة المجلة مكافأة لمؤلف كل بحث أو مقال أو دراسة، كما ترسل له نسخة مجانية من العدد الذي نشر به البحث أو المقال.

تصدير وجيز

إذا كانت دار الكتب والوثائق القومية في مصر، على مدى تاريخها العريق تمثل بيت التراث العربي بكل فروعه الثرية، فإن دورها قد تجاوز منذ مطلع القرن الماضي مجرد المخزن الحافظ للمقتنيات، والمؤتمن على كنوزها لتصبح حاضنة راعية لنموها وشيوع فائدتها، فقد أخذت تقدم عيون المخطوطات في مطبوعات كاملة شملت أبرز موسوعات العربية وأهم نتاجاتها المعرفية، كما تأسست فيها منذ عقود طويلة أهم لجان تحقيق التراث على المستوى الوطني والقومي وأخرجت من أسفار التاريخ والأدب والثقافة الدينية والعلمية ما جعل هذا التراث الغني مادة خصبة للبحث وإعادة القراءة والتقويم.

وهي إذ تقدم اليوم العدد الأول من مجلة تراثيات التي تصدرها مركز تحقيق التراث بالهيئة، ليستقطب فيها جهود علمائه المخلصين ويعرض وجوه أنشطتهم العديدة، ويقدم شذرات دالة من إنتاجهم الدؤوب، فإنها تفتح بذلك صفحة جديدة في التواصل العلمي المثمر بين كل المؤسسات العربية والأجنبية العاملة في هذا الميدان، مما يؤدي إلى تنسيق الجهود وتحديث المعلومات وتلافي تكرار المشروعات المتشابهة، ويعطي صورة صحيحة للدور الذي تقوم به دار الكتب والوثائق القومية في رعاية هذا التراث وتنميته علميا وإشاعة معلوماتيا ليدخل في نسيج الثقافة الحية ويعمل على تطويرها لتلائم تحديات العصور الجديدة.

والله من وراء القصد

دكتور/ صلاح فضل

افتتاحية العدد

التراث ذاكرة الأمة ، والأمة التي تُهمل تراثها أو تنسلخ عنه كالإنسان الذي يفقد ذاكرته فيفقد معها الماضي والحاضر والمستقبل جميعا .

وتراث العرب والمسلمين يمثل حلقةً ذهبيةً في سلسلة المعارف البشرية ، ويمثل في الوقت نفسه عنصرًا من عناصر وحدة الفكر والضمير بين أبناء الوطن العربي كله ، ووشيجة من وشائج القربى بين الشعوب الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها .

وانطلاقاً من الإحساس بأهمية هذا التراث ، أُنشئت الهيئات والمؤسسات والمجالس العلمية التي تُعنى بتسجيله وحفظه والتعريف به ونشره لينتفع به الناس . وقد وعت دار الكتب المصرية تلك الحقيقة منذ إنشائها ، فكان القسم الأدبي الذي أخرج مجموعة من أمهات كتب التراث في طبعات مازالت نموذجا يحتذى في التحقيق والإخراج الطباعي معاً . وبعد إلغاء القسم الأدبي ، كان لابد من التفكير في وريث شرعي له ، وفي صيغة تستطيع الدار من خلالها أن تؤدي دورها في نشر التراث ، فأنشأت مركز تحقيق التراث منذ خمسة وثلاثين عاما .

ولقد مرّ المركز خلال رحلة وجوده بعدة مراحل ، فبدأ بدراسة أكاديمية يلتحق بها الراغبون من خريجي الجامعات النابهين ، وتُلقى عليهم ـ فيها ـ محاضرات عن التراث ومجالاته ، وعن التحقيق وأساليبه ومدارسه وأدواته . ثم تحول إلى مركز لتدريب شباب الباحثين على التعامل مع تراثنا المخطوط وتحقيق نصوصه تحت إشراف نخبة من كبار أساتذة الجامعات المهتمين بالتراث والمشتغلين به في شتى مجالاته ، الدينية واللغوية والأدبية والعلمية والتاريخية . وخلال تلك الفترة نشر المركز مجموعةً قيِّمةً من كتب التراث ، وخرجت من عباءته مجموعة من الباحثين جمعوا بين العلم والخبرة بالتحقيق والقدرة على التعامل مع مصادر المعلومات . وتلك في حدّ ذاتها ثمرة عظيمة الفائدة لأنها تأتي في وقت توشك فيه مهنة التحقيق أن تندثر .

وبعد أن بلغ المركز رشده واكتمل نضجه ، كان طبيعيا أن يفكر في إصدار مجلة تكون لسان حاله ، وتسدّ ثغرة في عالم المجلّات العربية التي تزخر بها الساحة الثقافية : مجلة تسعى بالدرجة الأولى إلى التعريف بهذا التراث ، وتكون في الوقت ذاته همزة وصل بين المشتغلين به دراسة وتحقيقا ، مجلة تفتح صدرها للتعريف بجهود المحققين ، ونشر بعض ما يحقق من نصوص ، مجلة تتّبع أخبار التراث وتعرِّف بشيوخه وأعلامه ومؤسساته .

ولسوف تصدر هذه المجلة نصف سنوية بصفة مبدئية . وستكون موادها موجهة للمتخصصين بالدرجة الأولى ، ولكنها ستخاطب أيضا كل من له اهتمام بالتراث وقضاياه ، وبعالم المخطوطات والنشر . ولهذا فإنها ترحب بإسهامات الباحثين والمعنيين بالتراث فهرسةً ودراسةً وتحقيقًا ونشرًا . وكُلنا أمل في أن تكون ـ بحق ـ نافذة على التراث ، تعرِّف به ، وتستجلي ملامحه ، وتلبي حاجة المشتغلين به ، وتجذب إليه مزيدًا من الأنصار والمحبين .

والله سبحانه وتعالى نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه ، وأن ينفع به بقدر ما بذل فيه من جهد ، وما صاحبه من نيَّة صادقة . فهو سبحانه وليّ ذلك والقادر عليه .

رئيس التحرير

التراث وحوار الحضارات

أ . د . رفعت هلال*

منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي بدأ الغرب في نشر فكر جديد يحتم الصراع بين الثقافات والحضارات ، وقامت مجموعة من مفكريه وكتّابه بالدعاية لهذا الفكر الجديد .

وللأسف الشديد كانت الحضارة الإسلامية العربية واحدة من أوائل الحضارات التي يستهدفها هذا الصراع .

وقد بدأت نغمة تهميش دور الحضارة العربية كنغمة خافتة وعلى استحياء ، ثم تعالت وتصاعدت حتى تم تجريد الحضارة العربية من جميع إنجازاتها ووصمها بالتخلف والتعصب .

ونحن لا نستطيع أن نلوم إلا أنفسنا في هذا المجال ، فنحن الذين فرطنا في حضارتنا ؛ لم ننشرها ولم تتناقلها أجيالنا بالفخار والاعتزاز ، وعلى العكس من ذلك فقد بهرتنا الحضارة الغربية المادية حتى أنستنا تراثنا الذي يمثل الأساس وقاعدة الانطلاق للحضارة المعاصرة .

ويمثل تراثنا العلمي واحدًا من أهم أدواتنا في الصراع الدائر بين الحضارات . ومع أننا لا نؤمن بهذا الصراع أساسا ، وإنما نؤمن بالتفاعل والتكامل بين الحضارات ، إلا أننا لابد أن نعزز موقفنا ونبرز الإنجازات العلمية العظيمة لحضارتنا .

لقد تفردت الحضارة العربية بقيم لم يسبقها إليها أية حضارة أخرى ، قيم يمكن إيجازها في النقاط التالية :

١- الانفتاح غير المحدود على الحضارات الأخرى .

٢- الاستيعاب .

٣- العطاء المتوازن بين المادة والروح .

٤- الأمانة : فقد قام العلماء العرب بنقل المعارف والعلوم من الحضارات التي سبقتهم بكل أمانة ، ونسبوا الفضل إلى أصحابه ، وسمحوا بنقل معارفهم وعلومهم إلى الحضارات الأخرى بدون تعصب .

٥- التسامح : فليس للعلم في الحضارة العربية جنس أو لون أو وطن ، ولذا تعاملت الحضارة العربية مع كل شعوب الأرض بروح سمحة لا تعرف التعصب أو التعالي .

وقد ظهرت هذه القيم والصفات أكثر ما ظهرت في تراثنا العلمي حيث ترجم العلماء

(*) رئيس قطاع المراكز العلمية بدار الكتب ، ومدير مركز التراث العلمي بجامعة القاهرة .

العرب علوم الأوائل وطوروها ثم ابتدعوا علوما جديدة لم تكن معروفة مثل حساب المثلثات ، وأسسوا المنهج التجريبي في العلوم . ففى كتاب «القانون» للشيخ الرئيس ابن سينا وضع هذا العالم العظيم أسس اختيار الدواء وتحديد الجرعة المناسبة وتحديد منافعه ومضاره وتوصيفه . وما جاء في كتاب «القانون» في هذا الخصوص يعتبر بحق قانون مهنة الصيدلة إلى يومنا هذا .

ومظاهر عظمة العلم في الحضارة العربية أكثر من أن تحصى . فالعرب هم الذين ابتدعوا حساب المثلثات ، وحولوا الفلك من التنجيم إلى علم له قواعد وقوانين ونظريات . ناهيك عن نبوغهم فى الطب والصيدلة والكيمياء والعمارة ، والهندسة وغيرها من العلوم .

وإذا كان البعض ينظر إلى هذا التراث العلمي على أنه شيء من الماضي وقد تعدَّته الحضارة الحالية وأصبحت في غير حاجة إليه ، إلا أن تحقيق هذا التراث ونشره يصبح ضرورة في وقتنا الحاضر ، لما يمثله من قيم علمية ، ولأن بعضه مازال صالحا حتى الآن ، بدليل ما نشهده اليوم من ثورة على العقاقير الكيميائية ودعوة إلى الرجوع إلى الطبيعة والعلاج بالأعشاب . فضلاً عن أن العديد من الاكتشافات العلمية التي تمت على أيدي علماء عرب قد قام بنشرها علماء أجانب ونسبوها إلى أنفسهم ، ومثال ذلك أبحاث عمر الخيام في الرياضيات ، فقد قام بنشر معادلات تفاضلية كاملة ، وللأسف الشديد لم تنسب عمليات التفاضل البديل إليه وإنما نسبت إلى علماء الغرب .كما أن جزءاً كبيرًا من أبحاث ابن الشاطر في الفلك وخاصة تلك التي أدت إلى معرفة مركزية الشحن لم تنسب إلى هذا العالم العربي العملاق .

إن تراثنا العلمي في أشد الحاجة إلى محققين أكفاء قادرين على فهم المحتوى العلمي بقدر ما هم قادرون على فهم اللغة التي كتب بها هذا التراث . وواقعنا الحالي يجعل من الصعب الجمع بين هاتين القدرتين ، وللتغلب على هذه العقبة ينبغي أن يشارك في تحقيق التراث العلمي عالم متخصص في العلم المراد تحقيقه ، وعالم متخصص في اللغة . وهذه المزاوجة يمكن أن تؤدي إلى ما نرجوه من تحقيق تراثنا العلمي . كما أن دار الكتب يمكن أن تخصص جزءاً من موقعها على شبكة الإنترنت لنشر ما يتم تحقيقه بصورة موجزة باللغات الأجنبية بالإضافة إلى اللغة العربية .

التراث . . لماذا ؟

أ . د . حسين نصار*

لماذا الحديث أصلا عن التراث ؟

ولماذا المطالبة بالحفاظ على التراث الموجود في مصر ؟

ولماذا التفكير في تكرار العمل الذي قام به علي باشا مبارك ، عند إنشاء دار الكتب ، من جمع المخطوطات المتناثرة في المساجد ، القائمة في جميع أرجاء مصر ، وإيداعها مركزا واحدا ، كان حينذاك دار الكتب ؟

ولماذا المطالبة باستعادة المخطوطات التي تسللت إلى خارج العالم العربي ، أو الحصول على صور دقيقة واضحة منها ؟

ولماذا تقام المراكز المتعددة لتحقيق هذا التراث ؟

ولماذا يتصدى علماء كثيرون إما لتحقيقه أو لنقد ما يحقق منه ؟

ولماذا إهدار أموال الدولة والجماعات والأفراد وأوقاتهم من أجل القيام بهذه الأعمال ؟

وما هو التراث ؟

أليس هو الماضي الذي انقضى فمات ؟

أليس حمل الموتى عبءا على الأحياء ؟

ألا يثقل خطاهم ؟ ألا يقيد عقولهم ؟ ألا يعوق تقدمهم ؟ بل ألا يخمد إبداعهم في كل ما ينتجون من أدب وفن وعلم ؟

هذه أسئلة تروج ـ هي وأمثالها ـ بين المتعلمين من أبناء الأمة العربية ، فتؤدي إلى بلبلتهم .

فيدعو بعض من يصفون أنفسهم بالتقدمية ويطالبون بقصر التفكير على بناء المستقبل إلى طرح التراث جملة ، كأنه لم يكن وليس بكائن .

---

* المستشار العلمي لمركز تحقيق التراث بدار الكتب .

وتتوسط جماعات من المثقفين ، فلا يطرحون التراث جملة ، ولا يقبلونه جملة ، وإنما يخضعونه لدراسة تحت أضواء متعددة ، يأتي بعضها من أغوار الماضي ، ويسطع بعضها من ظروف الحاضر ، ويلوح بعضها من آمال المستقبل وطموحاته . فيرون في التراث أصنافا .

وتغلو جماعات فتنادي بالالتزام بالتراث جملة ، لأنه من إنتاج عصور القوة والازدهار والأجداد الأخيار . ويتناسون أن الماضي ليس عصرا واحدا .

وأعتقد أن الأمر يحتاج إلى الابتعاد عن جميع الأفكار الشائعة عن التراث ، والتأمل الدقيق الفاحص للقضية ، لحسن إدراك كل عناصرها .

قد أقول : إن الجنين يولد صفحة بيضاء خالية من كل شيء ، مهملاً . مؤقتاً ما نقرأ عن الجينات التي تورث هذا الوليد بعض ما في أبيه وأمه ، وعن أن هذا الجنين يتلقى ـ وهو في الرحم ـ بعض الأشياء عن أمه .

أما المؤكد فهو أن هذا الطفل يبدأ في الوعي ببعض ما يدور حوله من أمه وأبيه وإخوته ، بعد أيام أو أسابيع ، وأن هذا الوعي يتسع ويدق ويزداد مع مرور الوقت ، فيعطي الطفل إقبالا وإعراضا ، وحركات وأعمالا ، أي أنه يعطيه سلوكا .

وهذا السلوك تراث .

وهو تراث يتلقاه الطفل شاء أم أبى : واعيا وغير واع ، محبا وكارها .

وتتسع دائرة هذا التراث مع اتساع المجتمع الذي يعيش فيه الوليد طفلا ثم صبيا ثم شابا . . . إلي آخر حياته . وقد يرفض المرء بعض هذا التراث ، ولكن هذا الرفض لا يأتي إلا بعد المعرفة ، والتسلل إلى الأعماق فيتمسك الإنسان بالوفاء والصدق والشجاعة والكرم وغيرها مما تعارف المجتمع على أنها فضائل .

ولا يقتصر ما نأخذ من المجتمع على السلوك المحض ، بل يتعداه إلى الفكر الخالص .

فنحن ندين بالإسلام أو المسيحية أو اليهودية لأن أسرتنا تعتنق هذا الدين أو ذاك ، ونحن نتغنى بكرم حاتم الطائي وشجاعة عنترة العبسي الجاهليين ، وبوفاء السموءل اليهودي لأن مجتمعنا يعجب بهم . ونحن نجلّ عددا من الحكام والسياسيين السالفين لأن المجتمع ما زال يجلهم . وهكذا الأمر في جميع المناحي .

وإذن فالإنسان ـ في قسط كبير من سلوكه وتفكيره ـ تراث حيّ ، لا اختيار له فيه ، ولا سعى إلى تحصيله ، ومن العسير عليه أن يتخلص إلا من عناصر فردية منه .

ومن الطبيعي أن الأسئلة التي أوردتها في صدر هذا المقال تتجاهل هذا النوع من التراث عن وعي أو بدون ، وتركز النظر على التراث الفكري المدون وغير المدون .

والتراث المصري غنيٌّ غنىً فاحشا ، تبدأ آثاره مع بدء البشرية في التحضر ، وتشب فتعلو في العصر الفرعوني قمة ما تزال تخلب ألباب الناس في كل أنحاء العالم إلى اليوم .

ثم يشارك البطالمة الإغريق ، والرومان اللاتين ، والأقباط والمسلمون الذين يتحدثون بالعربية ، مما فتح الأبواب بين التراثين العربي والمصري حتى قبل دخول العرب مصر . فهو تراث يستغرق من الزمن آلاف السنين .

وقد انساح التراث العربي في العالم القديم كله ، فشغل المنطقة الممتدة بين الهند وأسوار الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ومن أواسط أوربا شمالا إلى أواسط إفريقيا جنوبا . يضاف إلى ذلك مناطق متناثرة في أفريقيا الجنوبية (مثل زنجبار في تنزانيا) وإندونيسيا وماليزيا في الشرق الأقصى .

أي أنه ممتد في الزمان والمكان إلى آماد بعيدة ، وشاركت فيه أجناس مختلفة ، وصدر بلغات متعددة .

ولكنني ـ بحكم دراستي ـ أتحدث هنا عن التراث العربي اللغة وحده .

وقد أبدأ بالتراث العربي العلمي ، الذي نؤمن جميعا أن التطور تجاوزه ، يدعو كثيرون إلى أن ننبذه وراء ظهورنا ، وهي دعوة فيها حق كثير ، ولكنها لا تخلو من الباطل .

فتاريخ العلم من الدراسات العالمية القائمة . وللأوروبيين جهود مشكورة في تاريخ العلوم العربية المتعددة . وأعتقد أن الوفاء للوطن المصري والأمة العربية يفرض علينا ألا نترك هذه الدراسات بين أيدي أجانب عنها ، خاضعة لصدقهم أو كذبهم ، لعدلهم أو انحيازهم ، لفهمهم أو عدم قدرتهم على الفهم ، ويفرض علينا ـ على الأقل ـ أن نشارك بنصيب في هذا التاريخ ، يجب أن يكون واعيا وموضوعيا . ولن نستطيع أن نعطي هذا البحث ما يستحق من ضمانات إلا بوجود التراث العلمي الذي نؤرخ له ميسراً بين أيدينا ، غير عسير على الفهم . ولا يمكن هذا إلا بحفظ هذا التراث في خزائن كتب حصينة ، وبتحقيق نماذج

مختارة منه نضعها بين أيدي جميع القراء : لا الباحثين وحدهم . وأعتقد أنه يجب أن يكون في هذه النماذج منافع إلى جانب المنفعة التاريخية .

وأود أن أزعم أن التراث العلمي ليس كتبا فقط ، وإنما هو كشوف ونظريات وآراء وتفكير علمي وسلوك . وهذه كلها مفخرة للعالم العربي يجب على المؤرخين أن يسجلوها ويبرزوها .

فنحن نصف العصور بعد سقوط بغداد في ٦٥٦هـ بالتخلف ، وهي التي منحتنا ابن خلدون عالم الإجتماع الفذ ، والمقريزي مؤرخ مصر الكبير ، والسيوطي والقلقشندي والعمري وغيرهم .

فما الذي خلَّص هؤلاء من عوامل التأخر في عصورهم ، وما الذي أتى بالتأخر أصلا ، وهل كان تأخرا شاملا كل مناحي الفكر أو مقصوراً على بعضها فقط ؟

إنها معرفة تحتاج إلى تاريخ يكشف ، والتاريخ يحتاج إلى تراث يخضعه للبحث .

وربما كان القول في المجال الديني أيسر وأوضح . فجميع المسلمين يتفقون على إجلال القرون الأولى وما أنتجت من تراث علمي ديني . ثم تمر السنوات ، ولا ينقطع الإنتاج ولكنه ـ في معظمه ـ هزيل لا يسامي الإنتاج السابق عليه . بل وصل الأمر إلى حد إغلاق باب الإجتهاد عند السُّنّة ، وإخماد التيار العقلي المتمثل في المعتزلة ، وطرح الاتجاه الديمقراطي الذي هو أحد أركان الخوارج .

فكيف وقع كل هذا إن كان قد وقع حقا كله أو بعضه ؟ وما أسباب وقوع ما وقع؟ بل لماذا أغلق باب الاجتهاد عند السُّنّة ، ولم يغلق عند الشيعة ؟ ما أسباب التقدم الأول والتأخر الذي تلاه ؟ وما الأسباب التي يمكن أن تأخذ بأيدينا إلى تقدم نطمع فيه ، ونلتزم نحن بها لنصل إلى ما نتمنى ؟

إن ذلك يحتاج إلى التاريخ ، والتاريخ يحتاج إلى وثائق يقيم عليها الدرس ، ويدعم بها ما يصل إليه من نتائج . والوثائق نماذج من التراث .

ولكن التراث ليس ضروريا للتاريخ وحده ، بل هو ضروري لمنافع أخرى ، لا تقل عن التاريخ أهمية إن لم تَفُقْه ، ولأضرب أمثلة من الفنون ، ولأبدأ بالفنون الشعبية .

لست في حاجة إلى حديث طويل عما يقع في هذه الفنون بل في جميع الصنائع اليدوية ، تدفع الأسرة التي تريد أن يتعلم ابنها (الصبي) إحدى هذه الصناعات إلى أستاذ (أسطى) ليعلمه إياها . وتتحرى الأسرة أن يكون الأسطى ماهرا في صناعته ، قادرا على

تلقينه أسرارها (معلما) : فيتخذه الصبي (عَمّا) له . وتمتد الصلة إلى أن يحس أنه استنفذ ما عند المعلم وأحاط بأسرار العمل ، وفي قدرته أن يستقل به ، بل ويبدع فيه ما لم يعطه أستاذه ، فينفصل عنه إلى عمله الخاص .

هكذا كان الأمر ، وهو كائن اليوم ، وفي المعتقد أنه يدوم أبدا .

وقد بدأت بالصنائع ، لأنها الأمر المشاهد الذي لا يجهله منا أحد ، ولكن ما قلتُه عنها ينطبق على غيرها . فنحن نقرأ في الصحف ونشاهد في التلفاز ، ونسمع من الإذاعة ، أن هذا العمل الدرامي أخرجه فلان ، وأن فلانا وفلانا وأحيانا أكثر من اثنين ، كانوا مساعدين له في إخراجه . والمعنى البسيط لهذا أن هؤلاء المساعدين (صبيان) ما زالوا في مرحلة الأخذ والتدرب .

والعماد الأهم في هذه المرحلة هو العودة إلى التراث ، والتعرف على أسرار جودة الجيد منه ، ورداءة الرديء ، للاستفادة من كليهما .

فإذا ما وصلنا إلى الأدب لم يتغير الحال ، نقرأ في العصرين الجاهلي والإسلامي أن فلانا كان راوية الشاعر الفلاني ، أي (صبيَّه) ، يأخذ منه أسرار التفوق الشعري . وقد كان هذا عاملا في نشأة المدارس الشعرية وأشهرها مدرسة عبيد الشعر ، التي كان رأسها الأول أوس ابن حجر ، وضمَّت جماعة من الشعراء المشهورين في العصرين المذكورين .

ونقرأ أن أبا نواس عندما بدأ ينظم الشعر ، وأراد أن يطمئن إلى سلامة ما ينظم ، وإلى تجويده ، ذهب إلى خلَف الأحمر من أكابر رواة الشعر في زمنه ، فأول ما همَّ بالكلام ، منعه خلف ، وأمره أن يعود ويحفظ آلافا من أبيات الشعر السابق أولاً . ففعل أبو نواس ، وعاد إلى خلف ، فاستمع إلى بعض ما حفظ . وعندما اطمأن إلى صحة دعواه ، أمره أن يحاول نسيان ما حفظ ثم يعود إليه . فلما فعل ، قال له خلف ، الآن تستطيع أن تقول الشعر (الجيد) .

وإذن فالإحاطة بالتقاليد القديمة (التراث) أمر ضروري لاتقان العمل الجديد ، بل للإبداع فيه . لا يقتصر ذلك على فن الشعر ، بل يتعداه إلى كل الفنون ، إن لم أقُل جميع مناحي العمل البشري . ولذلك كان قدماؤنا يقولون : أول الجديد قتل القديم علما .

ولا تقف وظيفة التراث عند معرفة أسرار الصناعة فقط ، بل تتعدى ذلك (الاستلهام) . إن الماضي له جماله الخاص عند البشر ، وللتراث فتنته عند المبدعين والمتلقين . وأقرب الأمثلة ما حظيت به الدراما التاريخية في المسرح والسينما والإذاعة والتليفزيون من نجاح باهر أغرى العاملين فيها بالتزامها سنويا ، على الرغم من تكاليفها الباهظة . ومن أدلّ الدلائل

على ذلك النجاح الكبير الذي تمتعت به مسلسلات ألف ليلة وليلة في الإذاعة ، على الرغم من أنها مسموعة وليست مرئية ، ومن ثم لا تتوافر فيها وسائل الإبهار .

وإذا أبحتُ لنفسي النظر إلى الأدب الإنجليزي نجد إليوت ـ زعيم المجددين في القرن الماضي ـ يجعل من شعره متناً علميا أو موسوعة ثقافية ، لكثرة ما ينهل من التراث وربما لا نجد ما يماثل هذه الحالة عند المجددين من شعرائنا وكتابنا . ولكننا نجدهم ينهلون من التراث الفرعوني والإغريقي والأشوري والفينيقي والأوروبي . وأخيرا العربي والإسلامي . إما يتخذون الحدث التاريخي إطاراً لعمل من إبداعهم ، قد يصوغون فيه رموزا لما يريدون ، كما فعل توفيق الحكيم وصلاح عبدالصبور في مسرحياتهما ، وطه حسين ونجيب محفوظ في قصصهما ، وغير من ذكرت كثيرون ، أو ينتقون من التراث الفني القديم صوراً جزئية . يفعل بعضهم ذلك عن عمد ، فيكون أقرب إلى الفشل منه إلى النجاح . ويفعله بعضهم عن غير وعي فيوفقون توفيقا بعيدا .

ومن أحدث المباديء في النقد ما يسمى بالتناص ، وهو أن الأديب الحديث ، وخاصة الشاعر ، يعيش في التراث ، ويستقي منه ويحوِّر فيه ويغير ؛ وذلك إبداعه . فلا يعاب عليه إلا الأخذ المباشر الواعي . أما الأخذ مما تمثله الإنسان في ثقافته وعبر عن شخصيته فذلك إبداع آخر .

ولعلِّي أشبّه هذا العمل بالتمثيل الغذائي . فنحن نتناول خضرا ولحوما وفواكه وأجبانا . . إلخ . ولكنها تتحول ـ بفضل ما تختلط من إفرازات المعدة والأمعاء ـ إلى عجائن ثم عصائر ، وأخيرا تتحول إلى مكونات أعضاء الجسم ، فتكون خلفا جديداً لا صلة له بما تناولناه من طعام .

فالطعام ضروري لخلق الصورة العضوية الأخيرة ، والتراث ضروري لخلق الصورة الفنية الأخيرة ، أي للإبداع ، ومعنى هذا أنه منجم عظيم ، يستخرج منه المجتمع والفرد أعظم المواقف والقيم ، وينتقي منه الفنان والأديب روائع الأجناس والنماذج والرموز والصور الكلية والجزئية .

ولكن للتراث خطره فالذي يضعف أمامه ويتعبد له ، يتجمد فكره وتجف مواهبة ويذوى إبداعه ، سواء كان إنسانا فردا أو مجتمعا كاملا ، وسواء كان مفكرا أو فنانا .

فالواجب إذن أن نحيط معرفة بالتراث لا لنكون أنداداً له ، بل لنتفوق عليه إن كنَّا من أصحاب أدوات التفوق .

هذا هو تراثنا

أ . د . عبدالستار الحلوجي*

يواجه الإسلام والمسلمون في هذه الأيام حملة ظالمة تقرن الإسلام بالإرهاب وتشعل نار الفتنة بين المسلمين . وأعداء الإسلام يعلمون جيدا أن أي مواجهة صريحة بينهم وبينه ستكون الغلبة فيها لدين الله ، لأنه يملك من مقومات البقاء والصمود ما يجعله يقنع العقول ويأسر القلوب ، وينتشر - حتى في ديارهم - بلا معجزات تبهر البصر ، وبلا ضغوط تقهر البشر ، وإنما بما يمثله من قيم ومباديء تجعله صالحا لكل زمان ومكان ، وقادرًا على التصدي لكل محاولات التشكيك والتضليل ، ولهذا يلجأون إلى ترويج الأباطيل عن هذا الدين الحنيف ، وإلى بث الفرقة بين أتباعه ، واستعداء بعضهم على بعض ، لاستنفاد قوتهم والسيطرة على مقدراتهم . وما حدث في البوسنة وأفغانستان وكشمير بالأمس القريب من تدمير وإهلاك للحرث والنسل ، وما تتعرض له المنطقة العربية في هذه الأيام من ضغوط واستفزازات وادعاءات باطلة ، وما يتجمع في سماواتها من سحب تنذر بالويل والثبور ، ما هي إلامظاهر وأعراض لما يراد لهذه الأمة من مكر ، وما يدبر لها من كيد ، وما يحاك لها من مؤامرات .

وهذه الحملة الشرسة ضد الإسلام والمسلمين ليست الأولى ولن تكون الأخيرة ، فالصراع بين الحق والباطل صراع أبدي ، والتاريخ خير شاهد على ذلك ، وما نشهده اليوم من هجوم على الإسلام لا ينبغي أن يخيفنا أو يصيبنا بالفزع أو الجزع ، لأنه يعني أن الغرب والشرق معًا يستشعرون الخطر من هذا الدين الذي ينتشر ولا ينحسر ، والذي تتفتح له العقول وتطمئن به القلوب وتتهاوى أمامه جميع السدود .

في هذا الوقت الذي يُمتحن فيه الإسلام والمسلمون ، لابد لنا من وقفة مع النفس ، نبحث في أعماقنا عن هويتنا ، ونجمع الخيوط المتفرقة التي تنسج شخصيتنا الإسلامية ، فنحن مطالبون اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، بأن نكتشف أنفسنا ، وأن نتعرف على جوهر ديننا ، لأن هذا الدين هو طوق النجاة لنا في هذا الخضم الهائل الذي تتدافع فيه أمواج الباطل من كل مكان . وما ورثناه من تراث إسلامي هو الوقود الذى تستمر به . جذوة الحياة متوقدة في نفوسنا ، ويوم نبتعد عن ديننا أو نتنكر لتراثنا ، تنماع شخصيتنا ونفقد كل مقومات البقاء .

---

(١) أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

تلك مقدمة أراها ضرورية بين يدي الحديث عن التراث الإسلامي .

وقبل أن نبدأ رحلتنا مع هذا التراث ، أحب أن نتفق على تعريف واضح له حتى لاتهتز الأرض من تحت أقدامنا في أي مرحلة من مراحل الطريق . ذلك أن كل لفظ من الألفاظ له دلالة لغوية توضحها معاجم اللغة ، ولكن بعض الألفاظ يحمّل دلالة اصطلاحية عند أهل الاختصاص . فالحديث ـ مثلا ـ هو الكلام ، أمّا عند المتخصصين في العلوم الشرعية فهو كلام النبي ﷺ خاصةً ، والفقة في اللغة هو الفهم ﴿قالُوا يا شُعَيبُ ما نفقهُ كثيراً مّمّا تَقُولُ﴾[1] أما في الاصطلاح فهو فهم أحكام الدين خاصة .

والتراث والميراث في اللغة شيء واحد ، وهما مشتقان من الإرث ، وهو ما يخلّفه الآباء للأبناء من متاع مادي وقيم معنوية . ولكن أهل الاختصاص يحاولون التفرقة بين اللفظين فيطلقون الميراث (وجمعها مواريث) على الأشياء المادية كالمال والعقار ، ويخصون التراث بالأشياء المعنوية كالمؤلفات والأفكار التى يخلّفها لنا السابقون ، والعادات والتقاليد التي يغرسها الآباء في نفوس الأبناء ، مع أن القرآن الكريم قد استخدم لفظ التراث للدلالة على الماديات في قوله تعالى : ﴿وتأكُلُونَ التُّراثَ أكْلاً لَمًّا﴾[2] ، وفي حديثنا هذا سنستخدم اللفظ بالمعنى الاصطلاحي لابالمعنى اللغوي ، وأقصد به ما خلّفه لنا أسلافنا من مؤلفات ، وما أرسوه فينا من قيم ومبادئ ، وما وضعوه لنا من ضوابط للسلوك .

وإذا كان هذا هو فهمنا لمدلول كلمة «التراث» ، فماذا نقصد بالتراث الإسلامي؟ هل نعني به كتابات القدماء عن الإسلام؟ أم كتابات المسلمين في شتى فروع المعرفة؟

إن النظرة الضيقة هي التي تقصر دلالة اللفظ على ما خلّفه لنا أسلافنا من مؤلفات في العلوم الإسلامية كالتفسير والحديث والفقه والتوحيد وغيرها من العلوم الشرعية ، وهي نظرة قد يبررها أن المسلمين السابقين هم أفضل مَنْ كَتب عن الإسلام ، وأن كتاباتهم هي المصدر الأساسي الذى اعتمد عليه واستقى منه كل من أتى بعدهم من المسلمين وغير المسلمين ، ولكنها ـ كما قلتُ ـ نظرة ضيقة ، لأن كلمة (الإسلامي) هنا صفة للتراث وليست موضوعًا له ، صحيح أن العلوم الإسلامية مجال من مجالات التراث الإسلامي ، بل إنها عموده الفقري بلا منازع ، ولكن دلالة اللفظ تتسع لتشمل كل ما خلّفه لنا علماء

(١) سورة هود (١١) ، آية ٩١ .
(٢) سورة الفجر (٨٩) ، آية ١٩ .

المسلمين عبر العصور من مؤلفات في مختلف فروع المعرفة ، وبشتى اللغات ، وفي كل بقعة من بقاع الأرض بلغتها دعوة الإسلام .

فمن حيث الموضوع تدخل مؤلفات جابر بن حيان الكيميائية ، ومؤلفات الخوارزمي الرياضية ومؤلفات الرازي وابن سينا الطبية ، ومؤلفات ابن يونس المصري ونصير الدين الطوسي الفلكية ، ومؤلفات الإدريسي والمقدسي الجغرافية ، تدخل هذه المؤلفات وكثير غيرها تحت مظلة التراث الإسلامي ، ومن حيث اللغة تُعَدّ مؤلفات الفردوسي وعمر الخيام وجلال الدين الرومي تراثا إسلاميا وإن كُتبت باللغة الفارسية ، وتُعد كتابات ابن كمال باشا وآشق باشا وفضولي تراثا إسلاميا وإن كُتبت باللغة التركية . ومن حيث المكان تمثل مؤلفات المسلمين في الأندلس وفارس وأفريقيا ، بل وفي الجمهوريات السوفيتية لبنات متألّقة في صرح التراث الإسلامي .

وثمة ملاحظة يجدر بنا أن نسجلها هنا بلا حساسية ، وهي أن معظم مفردات هذا التراث كُتب باللغة العربية ، لا لأن مؤلفيها كانوا عربا ، وإنما لأن اللغة العربية رافقت الإسلام في انتشاره وابتلعت اللغات المحلية التي كان يتكلمها ويكتب بها أبناء تلك البلاد من الفرس والترك والأسبان والأفارقة والمصريين ، لأنها لغة القرآن ، ولغة العبادة للمسلمين على اختلاف ألوانهم ولغاتهم ، فالمسيحي الإنجليزي يصلي بالإنجليزية ، والفرنسي يصلي بالفرنسية ، والصيني يصلي بالصينية ، أمَّا المسلم فلا تصح صلاته بغير اللغة العربية ، وذلك شرف لهذه اللغة قبل أن يكون شرفا للعرب ، لأن الإسلام لم يميز العرب على غيرهم بدليل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١] وقول النبي ﷺ في خطابه الشهير في حجة الوداع : «إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[٢] .

ولعل مما يلفت الانتباه ويثير العجب أن أعظم علماء النحو العربي هو سيبويه الفارسي ، وأن المحدثين الأربعة الكبار (البخاري ومسلم والنسائي والترمذي) خرجوا من المنطقة التي تعرف الآن بالجمهوريات السوفيتية ، وأن أعظم شعراء العصر العباسي كابن الرومي وأبي العتاهية وأبي تمام وأبي نواس كانوا من أصول غير عربية ، ولكنهم جميعا كانوا تحت الراية

(١) سورة الحجرات (٣٩) ، آية ١٣ .

(٢) جمهرة خطب العرب ، جمع أحمد زكي صفوت . القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٩٣ ، جـ١ ص ٥٩ .

عربًا ، لأن إلههم واحد ، ودينهم واحد ، ونبيهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، ولغتهم واحدة ، وثقافتهم واحدة .

هذا التراث الإسلامي بالمفهوم الذي قدمّناه ، والذي دخلت في نسيجه خيوط عربية وفارسية وتركية ويونانية هو الذي شكّل وجدان هذه الأمة ، فالإمام البخاري ـ مثلاً ـ هو شيخ المحدّثين بلا منازع ، وكتابه «الجامع الصحيح» هو أوثق مصادر الحديث باتفاق أهل العلم ، ولا يوجد مسلم على وجه الأرض لم يسمع عن البخاري . ولكن مَنْ منَّا يسأل نفسه عن جنسيته أو يعرف أنه من أوزبكستان ؟ ومَنْ من المسلمين يفرق بين عالم أوزبكي أو طاجكي وبين عالم مكّي أو مدني ؟

ولم يكن البخاري نموذجا فريدا ، فالطبري والخوارزمي وابن سينا والفارابي والبيروني كانوا من آسيا الوسطى ، وكانوا يرحلون في طلب العلم شرقا وغربا ، لا يفرّقون بين عالم شامي أو مغربي أو يمني .

لقد انصهر الجميع في بوتقة الإسلام ، وأصبح كل منهم يمثل بالنسبة لنا قيمة من القيم التي نعتزّ بها ، ويشكّل خيطا متألقا في نسيج الحضارة الإسلامية التي ازدهرت عدة قرون ، وأخرجت البشرية من ظلمات العصور الوسطى إلى مشارف عصر النهضة ، ولذا ننظر فنرى أوروبا تقيم في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد مدارس لتعليم اللغة العربية في إسبانيا[1] وصقلية ، تترجم تراث المسلمين من العربية (لغة الحضارة في ذلك الزمان) إلى اللاتينية ، بل إنها ترجمت تراث اليونان إلى اللاتينية عن طريق ما وجدته من ترجمات عربية لهذا التراث ، ولم تُعرف الأصول اليونانية لمؤلفات أرسطو وأفلاطون إلا بعد ثلاثة قرون حين سقطت القسطنطينية في منتصف القرن الخامس عشر للميلاد .

ودعونا نتفق بعد ذلك على أن هذا التراث بُني على دعامتين أساسيتين هما الأقوال والأفعال . ويأتي على رأس الأقوال المصدران الأساسيان من مصادر التشريع الإسلامي ، وأعني بهما القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، والقرآن الكريم نصّ ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2] ، ولعله الكتاب السماوي الوحيد الذي لم يتعرض لتحريف أو تبديل ، فقد حرص النبي ﷺ على حفظه وتدوينه حرصا شديدا ،

(١) فقد أسس ريموند أسقف طليطلة من ١١٢٦ - ١١٥١ مدرسة للترجمة .
(٢) سورة فصلت (٤١) ، آية ٤٢ .

وكان الصحابة يحفظونه ويكتبون لأنفسهم ، ولكنه لم يُجمع في كتاب إلا في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ حين استحرّ القتل بالقُراء يوم اليمامة سنة ١٢هـ فاقترح عليه الفاروق عمر أن يقوم بجمع القرآن خوفا من مقتل حملته وحافظيه ، فاستدعى زيد بن ثابت كاتب الوحي لرسول الله ﷺ وكلّفه بجمع القرآن[١] في صحف ظلّت عنده حتى لقي ربه ، فانتقلت إلى خليفته عمر ، وبعد مقتل عمر آلت الصحف إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر . ولما ظهرت بوادر الخلاف بين المسلمين في قراءة القرآن إبّان فتح أرمينية وآذربيجان في عهد عثمان بن عفان ﷺ ، طلب الصحف التي عند حفصة أم المؤمنين ، واستدعى زيد بن ثابت وثلاثة من القرشيين هم عبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم بأن يجمعوا الناس على مصحف واحد كُتبت منه عدة نُسَخ أُبقيت واحدة منها في المدينة المنورة وأرسلت الأخرى إلى الأمصار[٢] . ومازال مصحف سيدنا عثمان هو المصحف الجامع الذي لم يشذّ عنه أحد من المسلمين عبر العصور .

أما النص الثاني فهو الحديث النبوي الشريف ، وقد ظل يروى شفاهة حتى أمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز بتدوينه سنة ١٠٠هـ ، والسبب في ذلك أن النبي ﷺ كان قد نهى عن أن يكتب المسلمون عنه شيئا غير القرآن ، لأن القرآن لم يكن قد اكتمل نزوله بعد ، ولأنه ﷺ كان يخشى أن يخلط المسلمون بين كلامه وكلام الله سبحانه وتعالى ، خاصة في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الدعوة الإسلامية[٣] .

وكان طبيعيا أن يحدث خلال تلك الفترة الطويلة نسيان أو تزيّد في الحديث النبوي ، وأن ينسب بعض ضعاف النفوس إلى النبي ﷺ ما لم يقله ، وقد تصدى علماء المسلمين لهذه الظاهرة منذ وقت مبكر ، فوضعوا علم (مصطلح الحديث)[٤] الذي يحدد ضوابط دقيقة لقبول نصوص الأحاديث ، وأرسوا قواعد محكمة لدراسة السند أو سلسلة الرواة ، وظهرت كتب كثيرة تعرف بكتب الجرح والتعديل ، أي تجريح الرجال وتعديلهم ، وقد تكفل هذان العلمان بتنقية أحاديث النبي ﷺ من الضعيف والمشكوك فيه . ويعد «صحيح البخاري»

(١) صحيح البخاري ، الرياض : مطبعة دار السلام ، ١٩٩٩ ، ص ٨٩٤ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، القاهرة : مطبعة الشيخ عثمان عبدالرازق ، ١٣٠٦هـ ، جـ ١ ص ٦٣ .
(٣) انظر : تقييد العلم ، للخطيب البغدادي ، تحقيق يوسف العش ، دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٤٩ ، ص ٥٧ .
(٤) ويسمى أيضًا : علم أصول الحديث ، وعلم دراية الحديث .

نموذجا رائعا لتحري أقصى درجات الدقة في قبول الحديث . ولهذا وُصف ـ بحق ـ بأنه أصحّ الكتب بعد كتاب الله تعالى .

وبعد هذين النصّين يأتي في مرتبة تالية كل المؤلفات التراثية في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ، وقد تأثر كثير منها بطريقة المحدّثين في توثيق نصوص الأحاديث ، فكانت الأقوال والأخبار تروى مسبوقة بسلسلة طويلة من الأسانيد تقابل ما نسميه اليوم بالإشارات المرجعية Citation .

أما الأفعال فأعني بها أفعال النبي ﷺ وصحابته ، ومعروف أن السُّنة النبوية المطهرة أقوال وأفعال وإقرار ، فالأقوال يمثلها الحديث الشريف ، والأفعال توضحها السيرة النبوية ، والإقرار (أي أن يرى النبي ﷺ صحابيا يتصرف تصرفًا ما فيقرّه عليه) موزع بين كتب الحديث وكتب السيرة .

ولا أظنني بحاجة إلى التأكيد على أن النبي ﷺ هو إمامنا وقدوتنا بنص القرآن الكريم ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾[١] وأقواله وأفعاله نبراس لنا ، نسترشد بها ونسير على هديها . ولم يكن النبي ﷺ مجرد مبلِّغ عن ربه ، ولم يكن مجرد شارح للقرآن الكريم أو مفسر لبعض نصوصه ، وإنما كان مشرِّعا أيضًا ، فالصلاة ـ وهي عماد الدين ـ لم يحدد القرآن الكريم مواقيتها ، ولم يفصل هيئاتها وعدد ركعات كل فرض من فروضها ، وإنما تكفل بذلك النبي ﷺ فقال : «**صلّوا كما رأيتموني أصلي**»[٢] . وبعض الحدود (وهي بمثابة القانون الجنائي الإسلامي) مثل حدّ الرجم لم يرد في القرآن وإنما طبّقه النبي ﷺ .

وأنا أقول ذلك ردًا على الذين يشككون في الحديث ويقولون : نكتفي بالقرآن ، مع أن القرآن يصف الرسول الكريم بقوله : ﴿**وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى**﴾[٣] ، ويقرن طاعة الله بطاعة رسوله حيث يقول : ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول**﴾[٤] ، ﴿**وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون**﴾[٥] ، ﴿**قل إن كنتم تحبون الله**

(١) سورة الأحزاب (٣٣) ، آية ٢١ .
(٢) صحيح البخاري ، ص ١٠٤ .
(٣) سورة النجم (٥٣) آية ٣ - ٤ .
(٤) سورة النساء(٤) ، آية ٥٩ ، وسورة محمد (٤٧) ، آية ٣٣ .
(٥) سورة آل عمران ، (٣) آية ١٣٢ .

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[١] ، ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٢] .

وإذن فأفعال النبي ﷺ وأفعال صحابته الأكرمين الذين تتلمذوا عليه ونهلوا من معينه جزء متمم لما وصلنا عنهم من أقوال . وهذه تلك «الأقوال والأفعال» تؤكد عظمة الإسلام وسماحته وتدعونا للفخر به والاعتزاز بالانتساب إليه . وهي في الوقت نفسه وشائج قربى تجمع الأمة وتوحد فكرها وتنظم العلاقة السوية بينها وبين غيرها من الأمم .

لقد اتُّهم الإسلام قديما بأنه انتشر بحدّ السيف ، ويُتهم حديثا بأنه دين عنف وقهر وإرهاب ، مع أن قرآننا ينص صراحة على حرية العقيدة ، وعلى أنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٣] ، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٤] ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٥] . بل إنه يطالب الإبن المسلم الذي يحضه أبوان مشركان على الكفر ، يطالبه بأن يبرّهما ويحسن إليهما ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[٦] .

والقرآن الكريم يأمر النبي ﷺ بأن يبلغ رسالة الله إلى البشر ، ويرسم له إطارا لا يتعداه ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٧] ، ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٨] .

وبرغم هذه الآيات الصريحة في الدعوة إلى الإسلام باللين والحسنى ، وفي مجادلة أصحاب الديانات السماوية الأخرى «بالتي هي أحسن» ، برغم ذلك يُتهم الإسلام بأنه يبيح سفك الدماء . وهي تهمة تدحضها آيات كثيرة منها قول الحق سبحانه : ﴿ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ

(١) سورة آل عمران (٣) ، آية ٣١ - ٣٢ .
(٢) سورة النساء (٤) ، آية ٦٥ .
(٣) سورة البقرة (٢) ، آية ٢٥٦ .
(٤) سورة الكافرون (١٠٩) ، آية ٦ .
(٥) سورة الكهف (١٨) ، آية ٢٩ .
(٦) سورة لقمان (٣١) ، آية ١٥ .
(٧) سورة النحل (١٦) ، آية ١٢٥ .
(٨) سورة العنكبوت (٢٩) ، آية ٤٦ .

ربُكُم عليكُم ألاَّ تُشركُوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تقتُلُوا أولادكُم مّنْ إملاق نّحنُ نرزُقُكُم وإيَّاهُم ولا تقربُوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتُلُوا النفس الَّتي حرَّم اللَّهُ إلاَّ بالحقّ ذلكُم وصَّاكُم به لعلَّكُم تعقلُون ﴾[١] ، ﴿ولا تقتُلُوا النَّفس الَّتي حرَّم اللَّهُ إلاَّ بالحقّ ومن قُتل مظلُومًا فقد جعلنا لوليّه سُلطانًا فلا يُسرف في القتل إنَّهُ كان منصُورًا ﴾[٢] ، ﴿ومن يقتُل مُؤمنًا متعمّدًا فجزاؤُه جهنَّمُ خالدًا فيها وغضب اللَّهُ عليه ولعنهُ وأعدَّ لهُ عذابًا عظيمًا ﴾[٣] . ﴿وعبادُ الرَّحمن الَّذين يمشُون على الأرض هونًا وإذا خاطبهُمُ الجاهلُون قالُوا سلامًا * والَّذين يبيتُون لربّهم سُجَّدًا وقيامًا * والَّذين يقُولُون ربَّنا اصرف عنَّا عذاب جهنَّم إنَّ عذابها كان غرامًا * إنَّها ساءت مُستقرًّا ومُقامًا * والَّذين إذا أنفقُوا لم يُسرفُوا ولم يقتُروا وكان بين ذلك قوامًا * والَّذين لا يدعُون مع اللَّه إلهًا آخر ولا يقتُلُون النَّفس الَّتي حرَّم اللَّهُ إلاَّ بالحقّ ولا يزنُون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا * يُضاعف لهُ العذابُ يوم القيامة ويخلُد فيه مُهانًا ﴾[٤] .

بل إن الإسلام لم يفرض الجهاد إلا لردِّ العدوان وكفالة حرية العقيدة . فالحرب فيه لاتكون إلا دفاعا عن النفس أو اتقاءً لهجوم متوقع ، والمسلم مطالب «بأن يكتفي من الحرب بالقدر الذي يكفل له دفع الأذى ، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة . . وكل تحريض أمر به ولي الأمر في القرآن ، فهو التحريض على تجنيد الجند وحض العزائم على حرب لم يبق له محيد عنها ، ولا غرض له منها إلا أن يكفّ بأس المعتدين»[٥] .

﴿فقاتل في سبيل اللَّه لا تُكلَّفُ إلاَّ نفسك وحرّض المُؤمنين عسى اللَّهُ أن يكُفَّ بأس الَّذين كفرُوا واللَّهُ أشدُّ بأسًا وأشدُّ تنكيلاً ﴾[٦] ، ﴿ وقاتلُوا في سبيل اللَّه الَّذين يُقاتلُونكُم ولا تعتدُوا إنَّ اللَّه لا يُحبُّ المُعتدين ﴾[٧] ﴿فمن اعتدى عليكُم فاعتدُوا عليه بمثل ما اعتدى عليكُم واتَّقُوا اللَّه واعلمُوا أنَّ اللَّه مع المُتَّقين ﴾[٨] ، ﴿وإن عاقبتُم فعاقبُوا بمثل ما عُوقبتُم به ولئن صبرتُم لهُو خيرٌ للصَّابرين ﴾[٩]

(١) سورة الأنعام (٦) ، آية ١٥١ .
(٢) سورة الإسراء (١٧) ، آية ٣٣ .
(٣) سورة النساء (٤) ، آية ٩٣ .
(٤) سورة الفرقان (٢٥) ، الآيات ٦٣ - ٦٩ .
(٥) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، لعباس العقاد ، القاهرة : المؤتمر الإسلامي ، ١٩٥٧ ، ص ٢٣٥ .
(٦) سورة النساء (٤) ، آية ٨٤ .
(٧) سورة البقرة (٢) ، آية ١٩٠ .
(٨) سورة البقرة (٢) ، آية ١٩٤ .
(٩) سورة النحل (١٦) ، آية ١٢٦ .

ويمضي القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك فيفتح الباب على مصراعيه لإقامة علاقات مودة مع غير المسلمين طالما لم يبدأوهم بالعدوان ولم يخرجوهم من ديارهم ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[١] .

ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة ، فقد أخرجه أهل مكة وأخرجوا أصحابه وعذَّبوهم ، فماذا فعل بهم حين دخلها فاتحًا منتصرًا ، بعد أن خرج منها مطاردًا متخفيا؟ لم يعتقل أهلها ، ولم ينكِّل بهم ، ولم ينتقم منهم ، وإنما قال قولته الشهيرة : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

ولم تعرف الدنيا عبر تاريخها كله نظامًا للحكم أعدل من نظام الإسلام ، ولا ديموقراطية كديموقراطية الإسلام . ولو أردنا أن نسوق الأدلة على ذلك لاحتجنا إلى صفحات وصفحات . ويكفي أن نذكر هنا قطرة من بحر هذه الديموقراطية . فقد ألغى الإسلام العصبيات ، ونبذ التفرقة العنصرية ، فاستوى تحت لوائه علي بن أبي طالب القرشي مع بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي . بل إننا لنرى الصحابة يتسابقون في الاحتفاء بسلمان ، فيقول المهاجرون : سلمان منَّا ، ويقول الأنصار : سلمان منَّا ، ويرد النبي ﷺ قائلا : سلمان منَّا أهل البيت[٢] . وكان عمر إذا رأى بلالا يقول : بلال سيدنا وأعتقه سيدنا (يعني أبا بكر) .

وفي حجة الوداع ، يعلن النبي ﷺ ، في خطبته الشهيرة أول إعلان عالمي لحقوق الإنسان حيث يقول : «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلَّغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى مَن ائتمنه عليها . إن المسلمين إخوة فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم»[٣] .

وفي مدرسة النبوة تخرَّج عمالقة من أمثال أبي بكر الصديق الذي خطب الناس حين ولي الخلافة قائلا : «أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم . . . إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق . أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن زغت فقوِّموني»[٤] .

---

(١) سورة الممتحنة (٦٠) ، آية ٨ ، ٩ .

(٢) الطبقات الكبرى ، لابن سعد . بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٨ ، مج٤ ، ص٨٣ .

(٣) سيرة ابن هشام . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . القاهرة : مطبعة صبيح ، ١٩٧١ ، ص١٠٢٢- ١٠٢٣ .

(٤) الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، مج٣ ، ص١٨٢- ١٨٣ .

ويتولى بعده عمر فيسأل الناس يومًا أن يدلُّوه على عوَجه فيقول له أحدهم : «والله لو علمنا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا» فيحمد الله أن جعل في المسلمين مَنْ يقوِّم اعوجاج عمر بسيفه[١] . ويقول له رجل : اتق الله يا أمير المؤمنين . فينهض رجل من القوم ويقول له : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟ فقال له عمر : دعه فليقلها لي : نِعْمَ ما قال . ثم قال عمر : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»[٢] .

وقد اتسعت الدولة الإسلامية في عهده ، ومع هذا كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ[٣] ، ويداوي بنفسه إبل الصدقة . ويفد عليه رسول كسرى فيجده نائمًا على الأرض في ظل شجرة ، فيقول قولته المشهورة : عدلت فأمنت فنمت يا عمر .

يخرج عمر ذات مساء مع أحد أصحابه لتفقد أحوال الرعية فيجد امرأة وضعت قدرًا على النار وأطفالها حولها يتصايحون ، فيسألها عن سبب صياحهم فتقول له : الجوع . فيسألها عمَّا في القدر فتقول : ماء أُسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر . فيقول لها : وما يدري عمر بكم؟ فتقول له : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فينطلق مع صاحبه «أسلم» إلى بيت المال ويخرج لها دقيقا وزيتا ، ويقول لأسلم : احمله عليَّ فيرد عليه : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين . فيقول عمر : أنت تحمل وزري يوم القيامة؟ لا أم لك .

ويحمل أمير المؤمنين الدقيق ويمضي به حتى يبلغ المرأة وصبيتها ، ويساعدها في طهي الطعام ، وينفخ تحت القدر فيتصاعد الدخان من خلال لحيته الكثيفة ، وبعد أن ينضج الطعام يبرِّده لهم ، ويظل حتى يطمئن إلى أنهم قد شبعوا ، والمرأة تقول له : «جزاك الله خيرا ، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين»[٤] .

وفي خلافة عمر يفتح عمرو بن العاص مصر ، ويتسابق فرس ابنه مع فرس صبي قبطي من مصر ، ويختلف الصَّبيَّان حول أي الفرسين سبق الآخر ، فيعتدي ابن عمرو على الصبي القبطي ويضربه بالسوط قائلا له : خذها وأنا ابن الأكرمين . فيشكو الأب إلى أمير المؤمنين في المدينة ، فيستدعي عمر الصبيين ويستدعي معهما عمرو بن العاص . ولما مثلوا بين يديه قال للصبي القبطي : دونك الدِّرة فاضرب ابن الأكرمين . فضربه حتى أثخنه (كما يقول

(١) العبقريات الإسلامية ، لعباس العقاد . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٤ ، مج١ : عبقرية عمر ، ص٤٨٤ .
(٢) سيرة عمر بن الخطاب ، لابن الجوزي . القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٣٣١هـ ، ص١٣٥ .
(٣) فقد روي أنه رئي يطوف بالبيت وهو أمير المؤمنين وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة (الطبقات الكبرى ، مج٣ ، ص٣٢٨ ، وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ، ص١١٩- ١٢٠ .
(٤) سيرة عمر بن الخطاب ، لابن الجوزي ، ص٥٩- ٦٠ .

أنس بن مالك راوى القصة) . فلما فرغ قال عمر للصبي : أجِلْها (أي : أدِرْها) على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك ابنه إلا بسلطان أبيه . فقال عمرو فزعا : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت . واستحى الصبي وقال : يا أمير المؤمنين ضربت من ضربني . فقال له عمر : أما والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه . والتفت إلى عمرو مغضبًا وقال له قولته المشهورة : يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا[١] .

ولما رأى عمر أن المغالاة في المهور جعلت الشباب يحجمون عن الزواج خطب في الناس يدعوهم إلى الاعتدال وألا يزيدوا المهور عن أربعمائة درهم ، فنهضت امرأة وقالت له : ما ذاك لك . قال : وَلِمَ ؟ قالت : لأن الله تعالى يقول : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[٢] فماذا كان رد فعل أمير المؤمنين عمر؟ لم يأمر باعتقالها أو إلقائها في غياهب السجون ، وإنما رجع عن رأيه بشجاعة نادرة وقال وهو على المنبر : أصابت امرأة وأخطأ عمر . كل إنسان أفقه من عمر[٣] .

وتأملوا مَنْ القائل؟ عمر بن الخطاب الخليفة العادل الزاهد الذي قال فيه النبي ﷺ «ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر»[٤] ، «ولو كان بعدي نبيّ لكان عمر»[٥] . عمر بن الخطاب الذي نزل القرآن مؤيدا رأيه في أكثر من موقف ، بل نزل بنصّ كلامه قرآنٌ يتلى ويتعبد به الناس إلى آخر الزمان . يقول عمر فيما يرويه عنه البخاري : «وافقني ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلىّ ، فنزلت ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[٦] . وقلت : يا رسول الله ، لو أمرت نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البَرُّ والفاجر ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[٧] فنزلت هذه الآية[٨] .

(١) سيرة عمر بن الخطاب : لابن الجوزي ، ص٨٦- ٨٧ .
(٢) سورة النساء (٤) ، آية ٢٠ .
(٣) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ، ص١٢٩- ١٣٠ .
(٤) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب ١٧ .
(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٤ ، ص١٥٤ .
(٦) سورة البقرة (٢) ، آية ١٢٥ .
(٧) سورة التحريم (٦٦) ، آية ٥ .
(٨) صحيح البخاري ، ص٧١ .

وهناك مواقف أخرى غير هذه المواقف الثلاثة نزل القرآن فيها برأي عمر . فلمَّا مات عبدالله بن أُبيّ همّ النبي ﷺ بالصلاة عليه ، فذكَّره عمر بكيد الرجل للإسلام والمسلمين وبقول الحق سبحانه ﴿**استغفر لهُمْ أو لا تستغفر لهُمْ إن تستغفر لهُمْ سبعين مرّةً فلن يغفر اللَّهُ لهُمْ**﴾[١] فابتسم النبي ﷺ وقال : «لو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفر له زدت» ، وصلى عليه وشهد جنازته ودفنه ، فنزل قول الحق جلَّ وعلا ﴿**ولا تُصلِّ على أحدٍ منهُم مَّات أبداً ولا تقُمْ على قبرِه**﴾[٢] .

عمر ، هذا العبقري العملاق يردّ اعتبار صبي قبطي اعتدى عليه ابن واليه على مصر ، ويرده بطريقة عُمَرية لا يقوى عليها غيره ، ويتراجع عن رأيه على الملأ أمام امرأة من الرعية واجهته بحجة فلم يكابر فيها . فأية ديموقراطية هذه؟ إن أي ديموقراطية في الشرق أو في الغرب تنحني إجلالا لرجل كعُمَر ، وتستتر منه حياء وخجلا

ولست أدري لماذا يراودني في كثير من الأحيان شعور بأنه لو لم يوجد عمر في واقع الحياة ودنيا الناس ما صدَّق أحد أن الأرض منذ خلقها الله قد أقلَّت حاكما في عدل عمر وفي تواضعه .

فكيف تُتهم أمة هذا تراثها بالإرهاب؟ كيف تُتهم بالإرهاب أمة دينها الإسلام ، وتحية أهلها السلام ، وختام صلاتها السلام ، وقرآنها يدعو إلى السلام ﴿**يا أيُّها الَّذين آمنُوا ادْخُلُوا في السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[٣] ، ﴿**وإن جنحُوا للسَّلْمِ فاجْنحْ لها وتوكَّلْ على اللَّه**﴾[٤] ، ﴿**فإن اعتزلُوكُمْ فلم يُقاتلُوكُمْ وألْقَوْا إليكُمُ السَّلَمَ فما جعل اللَّهُ لكُمْ عليْهِمْ سبيلاً**﴾[٥] . وكيف يُقرن الإرهاب بالإسلام ، ورسوله أوصى قواد جيوشه بألا يقطعوا شجرة ولا يروِّعوا طفلا ولا امرأة ، ولا يتعرضوا بالأذى لأي عابد يتعبد في صومعته أياً كان دينه أو عقيدته . وهي وصية تناقلها الخلفاء الراشدون المهديون من بعده وألزموا بها قواد جيوشهم . فها هو أبو بكر الصديق يقول للمقاتلين المتوجهين للحرب : «لا تخونوا ولا تغلوا (أي : تحقدوا) ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا (أي : تقطعوه من أصله)

(١) سورة التوبة (٩) ، آية ٨٠ .
(٢) سورة التوبة (٩) ، آية ٨٤ .
(٣) سورة البقرة (٢) ، آية ٢٠٨ .
(٤) سورة الأنفال (٨) ، آية ٦١ .
(٥) سورة النساء (٤) ، آية ٩٠ .

ولا تحرقوه ، ولاتقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[١] .

فالمسلمون ليسوا دعاة حرب وإنما هم أنصار سلام ، يستجيبون لداعيه طالما أبدى أعداؤهم الرغبة في الأمن والأمان . وإذا كان نفر من المسلمين قد أساءوا الفهم أو التصرف ، فاللوم يقع عليهم لا على الإسلام . ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الأسوة الحسنة . ففي صلح الحديبية كان النبي ﷺ وصحبه يريدون العُمرة ، فتتصدى المشركون لمنعهم فقال النبي ﷺ لرسولهم : «إنا لم نجيء لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين» . وقَبِلَ النبي ﷺ أن يرجع وصحبه فلا يدخلوا مكة تلك السنة ، وإنما يدخلونها في العام القادم ويقيمون فيها ثلاثة أيام بعد أن تخرج منها قريش .

قد يقول قائل : إن الإسلام كان ضعيفا وإن الحكمة كانت تقتضي ما قَبِل به النبي ﷺ رغم اعتراض بعض صحابته على شروط الاتفاق وعلى الصيغة التي كُتب بها . ولكن ماذا يقول القائلون في عهد بيت المقدس الذي كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأهل إيليا ، وفيه «أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها ، وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها ، ولا من صلبهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن . . ومَنْ أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلّى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم»[٢] .

هذا هو نص العقد الذي يحمي أهل إيليا ويصون مقدساتهم ويكفل لهم حرية العقيدة . أما الجزية فليست إتاوة تفرض على أهل الكتاب ، وإنما هي ضريبة الدفاع أو ضريبة الأمن القومي إن صح التعبير ، لأنهم مُعْفَون من الجندية وحمايتهم مسئولية الجيش الإسلامي .

وأثناء كتابة العهد في كنيسة بيت المقدس يحين وقت الصلاة فيخرج عمر من الكنيسة ويصلي في جوارها ، لأنه خشي لو أنه صلى فيها فقد يحرص المسلمون بعده على احتجاز المكان الذي صلى فيه .

---

(١) جمهرة خطب العرب ، جـ١ ، ص٧٤ (وتاريخ الطبري ، جـ٣ ، ص٢١٣) .

(٢) تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٢ ، جـ٣ ، ص٦٠٩

أَبَعد هذا كله يقول أي منصف : إن الإسلام دين عنف وإرهاب؟ أبعد هذا كله يقال : إن الإسلام يبث في نفوس أتباعه كراهية غير المسلمين والعداء لهم؟ أبعد كل هذا يقال : إن المجتمع الإسلامي مجتمع عدواني يقوم على العنصرية؟

إن قِلَّة علمنا بتراثنا ، وعجزنا عن التعريف به تعريفا صحيحا هو الذي يتيح لأصوات أعدائنا أن تعلو ، ويتيح لتُهمهم الباطلة الجائرة أن تجد لها آذانا صاغية . ولهذا أقول : إن أزمتنا الحالية أزمة جهل قبل أن تكون أزمة ضعف ، وإن المعرفة الصحيحة بتراثنا هي التي يمكن أن تجمع شملنا وتقرِّب بعيدنا وتصون وحدتنا . فهذا التراث هو الذي يشكل عقل الأمة ووجدانها ، ولا تكفي المعرفة به وحدها ، وإنما لابد من إحيائه وتفعيله والتمسك به ، بل لابد من التعريف بما يحمله من مباديء سامية ومُثل عليا وقيم رفيعة ، تجمع ولا تفرِّق ، تبني ولا تهدم ، تصون ولا تبدِّد ، تنشر الحب والإخاء بين البشرية كلها ، وتحفظ الدماء والأموال والأعراض ، وتحرر الإنسان من الخضوع لغير الله ، وتطلق طاقاته الكامنة لعمارة الكون وإثراء الحياة .

تراث فلسطين : المنحة والمحنة

د . فيصل الحفيان*

مقدمـــة

ليس هذا بحثًا في تراث فلسطين ، ولا بحثًا عنه ، ولكنه بحث له ، أو من أجله ، يهدف إلى عدة أمور ، أهمها أن ثمة خطرًا ينبغي أن ننتبه له ، وأن هذا الخطر واقع هناك على أرض فلسطين ، وأنه ليس ما نشاهده مما يقع على إنسان تلك الأرض الذي تربطنا به روابط الدين واللغة ، والتاريخ والجغرافيا ، فذلك أمر مكشوف ليس بحاجة إلى إشارة أو تنبيه ، بل هو أمر آخر متصل بذلك الإنسان ، وأعني ذاكرته التي تتمثل في تراثه ، والتراث مفهوم متسع يشمل أشياء كثيرة ، سيتم حصرها ، أو محاولة ذلك ، وإذا كان الخطر يهدد هذا التراث ، ويجعله ويجعلنا في محنة ، فإن من الحق القول إنه أيضًا «منحة» لم نقم بحق شكرها .

* السياسة . . . والثقافة

الإنسان مادة وروح ، أو جسد وذاكرة . ونعني بالذاكرة : العقل والفكر . والتاريخ . وهذا كله مستهدف ؛ فإن فيه تهديدًا لمن يحاول صك «شرعية» ما زورًا . بل إنه الهدف الأهم ؛ لأن الجسد وحده لا يخيف إذا محونا أو شوهنا العقل أو الذاكرة ، إذ يستحيل الإنسان مجردًا من ذلك إلى آلة يمكن استثنائها أو تسييرها من قِبَل الآخر . أما مع العقل أو الذاكرة فالأمر مختلف ، إذ يرفض الإنسان الاستئناس أو التسيير من ناحية ، ويمتلك من ناحية أخرى قدرة غير عادية على بعث الحياة في الجسد ، ونفخ الروح فيه للدفاع والمقاومة من ناحية أخرى ، ويظل الجسد قادرًا ما دامت الذاكرة حية متوثبة ، فإذا ذهبت هذه الأخيرة أو طُمست ، أو شُوِّهت ، أو عُبث فيها ، شُلَّ الجسد ، وتيبس . . . . ومات .

والحرب التي تدور الآن في فلسطين ولاتزال حربان : حرب الأرض والناس ، وحرب أخرى على الذاكرة ، الأولى سياسية ، والأخرى ثقافية . السياسية تستخدم الرشاش والمدفع والدبابة والطائرة والصاروخ . والثقافية وسائلها القلم والمخطوط والكتاب والأثر والوثيقة . واختلاف الآلات والوسائل وحده يقيم هذا الحد بين الحربين ، ويعطي لكل منهما اسمها ، أما إذا نظرنا إلى الغاية ، فإن الحربين حربٌ واحدة هدفها السيطرة على الناس ومصالحهم .

(*) منسق برامج معهد المخطوطات العربية ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

ولكل من الحربين سمات ، أهمها أن الحرب السياسية ظاهرة ، والثقافية خفية أو مخفية ، الأولى بسيطة ، والثانية مركبة ، الأولى تحصد الأجساد ، والثانية تحصد العقول ، الأولى تنتهي ، فتتوقف الرشاشات وتسكت المدافع ، والثانية مستمرة ما استمر وجود صاحب الحق .

وانشغالنا بالأولى لا يجوز أن يلهينا عن الثانية ؛ لأنهما قائمتان معًا ، ففي الوقت الذي يقوم فيه جندي صهيوني بإطلاق الرصاص من سلاحه على رأس فلسطيني أو صدره ، تكون هناك كتيبة من الجنود تدكُّ مسجدًا أو تحرق كنسية ، أو تسوى مكتبة تاريخية بالأرض .

كما يكون هناك آخرون لايلبسون ملابس عسكرية ، ولا يحملون أسلحة ، يقومون بعمل من نوع آخر ، يحرّفون كتابًا أو وثيقة ، أو يطمسون حجة أوقاف ، فيرتكبون بين السطور والكلمات والأختام قتلاً من نوع مختلف ، تزيد خطورته بالتأكيد على طلقة البندقية ، ودانة المدفع ، وقنبلة الطائرة .

لقد حكى القرآن الكريم لنا كيف كان بنو إسرائيل يقتلون الأنبياء بيد ، ويحرفون كتبهم السماوية باليد الأخرى ، ذلك أن ذكاءهم «الشيطاني» دلَّهم على خطر الكلمة وتأثيرها ، وأن بإمكانهم عن طريقها أن يصلوا إلى مآربهم ، ولنا أن نتصور بساطة أن يعبثوا بحقوق الناس بعد أن اتخذوا كلمات الله هزوًا ، فغيَّروها وبدَّلوها .

وإذن فمحو الثقافة جزء من اللعبة السياسية سعيًا لتحقيق مصالح المعتدي والمستكبر والمغتصب للأرض . وهذا يفرض علينا أن نفتح أعين المثقفين وجموع الأمة على ما يجري ، ليفهموا أصول اللعبة وأبعادها ، ويهبطوا من أبراجهم العاجية التي يعشون فيها ، ويسهموا بدورهم في المواجهة ، وهي من نوع الحرب الثقافية التي سلفت الإشارة إليها .

*** فلسطين : المكان والمكانة**

شُغل المؤرخون والجغرافيون والمفكرون بالبحث عن شخصية بلدانهم[1] . فإذا كان لكل إنسان «شخصيته» التي تتميز ملامحها الخاصة ولا تشتبه بـ «شخصية» أخرى ، فإن الأمكنة كذلك . وقد كان البحث في هذا الاتجاه من أرقى الأعمال التي قام بها هؤلاء ، لأنهم تجاوزوا بذلك الخصائص المرئية للمكان إلى فلسفته ، ونفذوا إلى ما يميزه ويعطيه

(١) لعل أقرب ألوان هذا البحث ما قام به المرحوم جمال حمدان في «شخصية مصر» .

تفرده وصولاً إلى عبقريته ، من خلال نظرة تركيبية عميقة ، ربطت بين الأرض والناس ، والمادي والروحي ، والماضي والحاضر .

وفلسطين[١] على الرغم من محدودية مساحتها ، وقلة سكانها «شخصية» ذات قيمة عالية ، تجعل منها نموذجًا لا يقلُّ عن أمكنة أخرى مجاورة ، أكبر مساحة ، وأكثر عددًا ، فالمسألة ليست مساحة وسكانًا فحسب ، ولكنها مسألة صلابة وقدرة على التفاعل مع الذات ، ومع الكون بكل ما فيه .

فلسطين ـ إذا استعرنا مصطلح الجغرافيين ـ شخصية إقليمية نموذجية قلبت المقاييس المتعارف عليها ، وانفردت بكونها من أغنى الشخصيات الإقليمية دون أن تتوافر فيها بعض العناصر التي قد يراها بعضهم هامة وضرورية .

وأحسب أننا لسنا بحاجة إلى أدلة ، وبخاصة أننا نشاهد بعيوننا عظمة الإنسان الذي يحيا على تلك الأرض وصلابته ، وقدرته على المواجهة والمقاومة والفداء والاستشهاد وعدم اليأس أو القنوط ، والصبر على الجوع والفقر والموت ، كل ذلك في ظل حالة تهاون عربية وإسلامية وعالمية ، لا يمكن تفسيرها ، ولا تسويغها .

إذا أردنا أن نلخّص الشخصية الإقليمية لفلسطين في كلمات قليلة ، ونرسمها بإيجاز ، فإنه يمكننا أن نقول : فلسطين جارةُ أربع دول عربية هي : مصر وسورية والأردن ولبنان ، مصر أكبر منها بـ ٣٧ مرة ، وأكثر منها سكانًا بما يزيد على عشرات مرات ، وسورية تكبرها بـ ٧ مرات ، ويزيد سكانها أكثر من الضعف . ومساحة الأردن أكبر منها بأكثر من ثلاث مرات ، وإن كان عدد سكانها أقل (٦٪) ، أما لبنان فمساحته أقل بنسبة ٣٨٪ ، وعدد سكانه أقل بنسبة ٤٥٪[٢] .

---

(١) فلسطين تاريخيا جزء من بلاد الشام ، وبتعبير القدماء : كورة من كورها أو جند من أجنادها ، ولها حدود مذكورة في كتب البلدان . (انظر مثلا : معجم البلدان ـ فلسطين وتختلف هذه الحدود عن تلك التي رسمت بعد الحرب العالمية الأولى على أيدي فرنسا وبريطانيا ، ثم هذه الرقعة من الأرض هي الآن موضع نزاع ظالم ـ كما نعلم ـ بين أصحابها وأولئك الذين وطنوا فيها وهذا ما جعل محرر العرض الخاص بفلسطين ضمن «المخطوطات الإسلامية في العالم ـ مسح الفرقان» يقدم ملاحظة مبدئية مفادها أن العرض يشمل المنطقة بمفهومها بعد الحرب العالمية إلى أن يتم ترسيم الحدود بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، أما حديثنا هذا فهو عن تراث فلسطين ، كل فلسطن ، بغض النظر عما يحدث الآن ، أو يخطط له .

(٢) فلسطين الموقع والموضع ، د . فتحي عبدالله فياض (ضمن أعمال ندوة فلسطين عبر عصور التاريخ) . القاهرة : مركز البحوث والدراسات التاريخية ، ١٩٩٦ .

وقد أسال موقع فلسطين الجغرافي لعاب الطامعين عبر التاريخ . فنحن نعرف أن الهكسوس انطلقوا منها إلى مصر ، ومنها دخل نابليون إلى الشام ، واستخدمها العرب لنشر الدعوة الإسلامية في مصر وشمالي إفريقية وبلاد الأندلس ، واختارتها بريطانيا لتكون تحت انتدابها تأمينًا لطرق مواصلاتها إلى الهند عبر قناة السويس .

وننظر في التاريخ فتتوالى الصور سريعة ، فعلى أرضها التقت الديانات السماوية الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام ، وبها وُلد المسيح ، وفيها كنيسة القيامة ، وهناك الكثير من الآثار والأمكنة المسيحية المقدسة التي تضرب في عمق التاريخ ، وتربط بين الإنسان والمكان ، وتجعل منهما شيئًا واحدًا لايقبل التجزئة ولا الانفصام .

وفيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، ومسرى الرسول محمد ﷺ ، وفيها البقعة التي بارك الله حولها : المسجد الأقصى ، قبلة المسلمين الأولى التي توجهوا إليها في المراحل الأولى من الدعوة الإسلامية ، ثم استجاب الله دعوة نبيه الذي قَلّب وجهه في السماء متحيرًا ، موزع القلب بين بيت الله الحرام في مكة ، والمسجد الأقصى في بيت المقدس ، فأمرَه بالتوجه إلى الكعبة الشريفة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[1] . لكن تحويل القبلة عن المسجد الأقصى لم ينل من مكانته ، ففي الحديث الشريف : «لاتُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى»[2] .

ونترك الموقع «الجغرافيا» والمكانة التاريخية والدينية ، لنلحظ طبيعة الأرض التي وُصفت بأنها مليئة بالعوائق والموانع التي تعين على الدفاع عنها ، يقول آدم سميث : «ولا تجدي معها الجيوش الكبيرة ، ولا تستطيع أن تفعل شيئًا»[3] ، هذه الصلابة والمنعة والقدسية المستمدة انعكست على الإنسان ، وهذا ثابت ومقرر علميًا .

بعد ذلك أراني أود أن أكثف شخصية فلسطين بوصفها مكانًا وأختزلها في كلمتين : «أرض الحياة» ، والحياة هنا تتجاوز مناقضة الموت إلى وصف آخر أعلى وأغنى هو منح الحياة لإنسانها ، وإعطاؤها القدرة على مواجهة الموت ، وانتزاع حقه ممن يريد أن يسلبه هذا الحق ، أو يعتدي عليه .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٤ .

(٢) حديث صحيح ، انظره في الصحاح الستة .

(٣) بحث فلسطين : الموقع والموضع ، ص ٤٢ ، مصدر سابق .

مثل هذه الأرض ، ومثل هذا الإنسان ، لابد أن يكون لهما عطاء عظيم ممتد على مدى التاريخ على مختلف الأصعدة ، ولاشك أن هذا العطاء سيتجلى في تراث يمثل ذاكرة الأرض والناس .

*** تراث فلسطين أو ذاكرتها .**

تمتلك فلسطين تراثًا كبيرًا ، وغنيًا ، كمًا ونوعًا وتنوعًا ، يمثل جزءًا مهمًا من ذاكرتنا العربية والإسلامية من ناحية ، وجزءً مهمًا أيضًا من الذاكرة الإنسانية ، ويتعرض اليوم لحرب متوحشة ، تشنها إسرائيل ، ونحن غافلون غفلة غير مفهومة ، متخلين بذلك عن واحد من أهم الأسلحة ، ولا يخفى أنه سلاح ذُبحنا به ، ونُذبح ، في الوقت الذي كان يمكن أن يكون في أيدينا ، ندرأ به عن أنفسنا ، ونثبت به حقوقنا .

ويتمثل ذلك التراث في تلك الآثار المشاهدة القائمة على الأرض من عمائر ونقوش وحفريات ، وما يتصل بها من قطع أثرية وأحجار وعملات وشواهد وصور ، وتلك الوثائق التاريخية والشرعية التي تحكي حياة الناس وتقيِّد معاملاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم ومع غيرهم ، مع أنفسهم ومؤسساتهم وحكامهم ، مع أصدقائهم وأعدائهم ، وتلك الحُجج والدفاتر والسجلات التي تؤكد الحق في الأرض والبيت والمسجد والكنيسة والمكتبة والمدرسة والسبيل والمنشأة .

كما يتمثل في ذلك التراث الفكري : الأدبي واللغوي والتاريخي والعلمي ، والمدون في مخطوطات تكشف عن نتاج عقول الناس على تلك الأرض .

وليس المقصود بـ «تراث فلسطين» ما هو موجود فقط في فلسطين ، بل هو أكبر وأشمل من ذلك بكثير ، فعطاء فلسطين ليس مقصورًا على الموجود داخلها ، كما أنه ليس ما أنتجه أبناؤها فقط ، إنه يشمل ـ من وجهة نظري ـ :

- **تراثًا في فلسطين .**
- **وتراثًا عن فلسطين .**
- **وتراثًا من فلسطين .**
- **وتراثًا لفلسطين .**

هذه الأنواع الأربعة معًا هي تراث فلسطين أو ذاكرتها ، وينبغي أن نبذل كل ما في وسعنا للعناية بها ورعايتها ، وتوظيفها .

ونلاحظ في القسمة السابقة دور حروف الجر ، فلنبين ما نريد :

١ - التراث في فلسطين : هو ذلك الذي ما زال موجودًا على أرضها ، سواء كان لدى السلطة الفلسطينية ، أو وضع عليه المحتل يده الآثمة ، بغض النظر عن موضوعه ، وهو جزء من الذاكرة العربية والإسلامية التي هي الذاكرة الكلية لفلسطين .

٢ - التراث عن فلسطين : هو كل ما يتصل بها ، أيًا كانت درجة الاتصال ، لكنه خارجا جغرافيًا . وقد يكون موجودًا داخل الوطن العربي ، أو في العالم الإسلامي ، وقد يكون بأقلام أبنائها ، أو إخوتهم من العرب والمسلمين ، ولكنه ليس بأقلام الآخرين .

٣ - التراث من فلسطين : وأعني به ذلك الذي أفرزته تلك البقعة ، سواء ارتبط بها أم لم يرتبط ، أقصد سواء كانت فلسطين موضوعًا له أم لم تكن . وأوضِّح أكثر فأقول : إنه نتاج أبناء فلسطين أو الذين تعلموا فيها ، أو عاشوا على أرضها ، من مخطوطات في المتاحف والأديرة ، وعملات أثرية ، ومكاتبات ، وأدب وغيره مما يعكس عبقرية المكان .

٤ - التراث لفلسطين : ويراد به ذلك المرتبط بفلسطين ، ومصدره الآخرون في الماضي والحاضر ، وإنما فصلته عن «التراث عن فلسطين» ؛ لأنه محتاج إلى درجة أعلى من الحذر في التعامل معه . وإنما عددته ضمن تراث فلسطين ، لأن لها دورًا في إنتاجه بوصفها موضوعا له ، كما أن له دورًا في فهم ما يدور في عقول الآخرين عنها ، وما يترتب على ذلك من توظيفه في خدمة الغاية التي نسعى إليها .

فالتراث في فلسطين وعنها بُعْدُه جغرافي ، ولا يخفى أن هذا البعد أو هذه الدائرة الجغرافية ليست مرتبطة بالحدود السياسية لفلسطين الحالية ، وعليه فإن هذه الدائرة تتسع لتشمل المناطق المحاذية لفلسطين ، إذ هي امتدادات طبيعية للدائرة الأساسية ، فنحن لانستطيع أن نغفل تخوم فلسطين ، ونضرب مثلاً بجنوبي فلسطين ، حيث مكتبة دير سانت كاترين التي تحتوي على كثير من المخطوطات والوثائق ، وفيها الكثير من المعلومات المهمة المتصلة بالامتدادات البشرية لسكان فلسطين ، وتحركاتهم ونشاطاتهم ، ورحلاتهم .

*** فلسطين بكل اللغات**

وإذا كانت القضية هي «فلسطين» التي نريد أن ننفذ إلى روحها عبر التاريخ والمكان والبشر لنحمي ذاكرتها وحقَّنا فيها ، فإن مسألة اللغة تصبح وسيلة لا غرضًا ، بمعنى أننا ونحن نخدم فلسطين ونحميها ، نلجأ إلى كل اللغات ، ولا نقتصر على ما كُتب بلغتنا

القومية ، وهذا يعني أن تتسع الدائرة اللغوية التي نتحرك في البحث والتوثيق فيها لتشمل لغات عديدة تاريخية وحية ، منقوشة ومكتوبة ، ولنا أن نتصور حجم العبء الملقى على الأمة ورجالها المخلصين ، فلدينا بالإضافة إلى العربية : السريانية والآرامية والبيزنطية أو اللاتينية ، ولدينا التركية واليونانية والقبطية . . . وغيرها .

وثمة أولويات في التعامل مع كل نوع من أنواع تراث فلسطين :

الموجود داخل فلسطين أولويته أن ننقذه عن طريق المطالبة به وجمعه وصيانته وترميمه وتوفير المكان الملائم له ، نظرًا للأوضاع التي يعاني منها .

في حين أن أولوية التراث عن فلسطين تتمثل في جمعه في مكان واحد ، ولفت الانتباه إلى مايحتويه من معلومات هامة للإفادة منها ، واستخراج ما يعضد الحق العربي في تلك الأرض .

والتراث من فلسطين أولويته في درسه والتنقيب عنه أيضاً .

والتراث لفلسطين أولويته في تبويبه وإتاحته للباحثين .

ويجمع ذلك كله أننا محتاجون حقًا إلى ما يمكن تسميته «المكتبة الفلسطينية الكبرى» التي تشكل ذاكرة كاملة لتلك الأرض[1] . إنه عبء حضاري وتاريخي وقومي وديني ثقيل .

*** محنة التراث في فلسطين :**

بدأت محنة التراث في فلسطين مع محنة أصحابه ، في سنة ١٩٤٨ ، فقد نزحت أعداد كبيرة من الفلسطينيين ، أو طُردوا ، وكان لهذا أو ذاك أثرهما الكبير على المجموعات الخطية التي تمتلكها الأُسر . وتبلغ المحنة ذروتها ، ففلسطين اليوم تحت الحصار ، وتراثها يتعرض للإبادة ، شأنه شأن أصحابه .

ويهمنا هنا أن نخص بالحديث ذلك الجزء الموجود داخل فلسطين ، نظراً لأنه حالة حرجة . وهو موزع على المكتبات العامة والخاصة والجامعات والمساجد والكنائس والأديرة[1] ، وبعضه لايزال مخبوءاً ، وبخاصة في الكنائس والأديرة .

---

(١) انظر : دليل مكتبات المخطوطات ١٨٣ ـ ١٩٩ ، والمخطوطات الإسلامية في العالم ٤١٣/٣ ـ ٤٦٢ ، والتراث العربي المخطوط في فلسطين ٧٣ ـ ١٠٥ .

ومهما يكن فإن عدد هذه الجهات لايزال رقماً مجهولاً ، على الرغم من جهود عظيمة تُبذل هنا وهناك . وتشير بعض التقارير والإحصاءات إلى مايقرب من (٢٤) مكتبة موزعة على مختلف المدن الفلسطينية (١١مدينة) ، منها (١٢) مكتبة في القدس ، بعضها قديم ، وبعضها مستحدث ، وعدد لا بأس به من الرقم الإجمالي مكتبات خاصة ، والباقي موزع على الجامعات والجمعيات والمؤسسات ومراكز البحث والأوقاف والبلديات والمساجد والأديرة والكنائس . وإنما قلنا «رقم مجهول» لأن الذين يرصدون المكتبات يغفلون عن مكتبات اندثرت ، مثل مكتبة حسن صدقي الدجاني ، ومكتبة عائلة جار اللّه ، ومكتبة عبداللّه مخلص ، وكلها في القدس ، ومكتبة سعيد الكرمي في طولكرم .

وإذا كان عدد المكتبات مجهولاً ، فإن عدد المخطوطات مجهول بدرجة أكبر . وتذكر التقارير أنه كان يقدر قبل الاحتلال بنحو خمسين ألف مخطوطة أصلية ، لم يبقَ منها الآن سوى نحو ثمانية آلاف مخطوطة [1] ، على أحسن الفروض ، أي نحو ١٨٪ . ونحن بالطبع نتحدث هنا عن المخطوطات ، وليست لدينا بيانات عن السجلات والوثائق والأوقاف ، فتلك مسألة أكثر تعقيداً وخطورة .

وأهم المكتبات وأغناها حتى اليوم :

المكتبة الخالدية ومكتبة المسجد الأقصى ومكتبة دار إسعاف النشاشيبى ، وهي جميعاً في القدس .

وفي الآونة الأخيرة ظهرت مكتبات أنشأتها دولة إسرائيل ، وأطلقت عليها أسماءها ، أما ما فيها فهو للفلسطينيين ، إذ هم أصحاب الأرض وما عليها ، ومن تلك المكتبات : مكتبة جامعة حيفا ، والمكتبة الوطنية ، ومكتبة الجامعة العبرية (القدس الغربية) . وهذه الأخيرة فيها كمٌّ لا بأس به من المصاحف والمخطوطات بالفارسية والتركية العثمانية والعربية (٢١٤٣مخطوطة) ومتحف ذكرى مائير (بالقدس الغربية أيضاً) والمتحف الإسرائيلي ، ومكتبة جامعة تل أبيب .

إن محنة التراث في فلسطين تتلخص في مايلي :

١ ـ الاستيلاء ووضع اليد عليه .

---

(١) المخطوطات الإسلامية في العالم ٤١٤/٣ .

٢ـ سرقته ، فقد اختفت مجموعات منه من أماكنها الأصلية ، وظهرت في أماكن أخرى في ظروف غريبة . وهذه نقطة موضع تفصيل سيأتي لاحقاً .

٣ـ التضييق على أصحابه ومحاصرتهم ـ إذا صح التعبير ـ اقتصاديًا ، حتى لايتمكنوا من الإنفاق عليه والاهتمام به .

٤ ـ مصادرة الأوقاف التي كان يُنفق منها عليه .

٥ ـ انتفاء بعض نصوص غير ذات القيمة علميًا ، والتركيز على ما فيها من إسرائيليات وأكاذيب وتُرهات ومبالغات لايقبلها العقل ، ولَيّ عنق المادة العلمية لتتوافق مع الأغراض المشبوهة التي يرمون إليها . وسنضرب مثالا على ذلك .

بدأت المحنة مع الكارثة سنة ١٩٤٨ ، فقد سقطت مع الأرض أشياء كثيرة ، منها عشرات المكتبات بما فيها من المخطوطات والوثائق والكتب والدفاتر ، وكما فعل المغول من قبلُ في بغداد ، فعلوا ، وكان تركيزهم شديدًا على القدس ، فقد وضعوا أيديهم على مخطوطاتها ووثائقها .

وجاءت نكبة ١٩٦٧ لتكتمل فصول الرواية المأساوية ، وتمتد الأيدي إلى الضفة الغربية وقطاع غزة ، تعبث في كل شيء .

ويبدو أن تفاصيل الجريمة كانت واضحة ، فقد قاموا بترويع الإنسان حتّى ينشغل عن تراثه بالجهاد من أجل البقاء ، فنهبوا واغتصبوا ، وأحرقوا ودمروا ، واضطهدوا الإنسان وأفقروه ، وتجاوزوا ذلك كله إلى ما اعتادوا عليه عبر تاريخهم ، فانتقوا بعض المخطوطات التي تخدم أغراضهم في سرقة الأرض والمقدسات وتمجيد ماضيهم وتعظيم أعمالهم ، أو التي يمكن لهم أن يلووا الكلام فيها عن وجهه ـ وهم ـ كما نعلم ـ محترفو تزويرها وتبديل وتزييف . وقد ازدادوا احترافاً وتمكناً بعد أن أُتيحت لهم فرصة امتلاك التكنولوجيا والسيطرة على وسائل الإعلام ، بما فيها من قدرة غير محدودة على تغيير الحقائق وتبديلها وتزويدها وتحريفها وإلباس الأكاذيب لبوس الصدق والرصانة والعلم .

ولنستعرض بعض ما جرى لمكتبتين فلسطينيتين :

*** المكتبة الخالدية في القدس :**

تُعد من أغنى المكتبات وأعرقها ، وتذكر المصادر ـ كما سلف ـ أن بها نحو ألفي مخطوطة ، وعدة آلاف من الوثائق اكتُشفت تحت سقفها صدفة عام ١٩٨٧ أثناء عمليات

٥- قاتل السم ، التِّرياق ، البادزهر* .

٦- المُسْهل ، المُدِر ، المُعَرق .

وقد عرف فعل هذه الأنواع ، وضرب أمثلة لكثير منها ، وبين المتضادين في الفعل ، وإنا نرى أنه يمكن لعلماء الطب والصيدلة العرب أن يفيدوا من هذه المسميات ، في تعريب ما يستعصي عليهم من مصطلحات في هذا المجال . ونؤكد أنها ترجمت من العربية إلى لغات أخرى ، عبر الترجمات العديدة التي جرت لكتاب القانون ، واستعمل الأوروبيون هذه المصطلحات بلغاتهم بعد ترجمتها عن العربية ، أفلا يجدر بنا أن نتعرف على هذه المصطلحات في لغتنا؟

المقالة الخامسة : في أحكام تعرض للأدوية من خارج . وفيها بيَّن ما تتعرض له الأدوية بالصناعة ، مثل الطبخ ، والسحق ، والإحراق بالنار ، والغسل ، والإجماد في البرد ، والوضع إلى جوار أدوية أخرى ، ووضع أثر هذه العمليات في قوة الدواء وفاعليته . ولا شك أن هذه الأمور لا يتعرض لها أو يهتم بها إلا خبير مجرب . وأنها تدل على معرفة دقيقة بأمور العقاقير المفردة والمركبة . وهي موضع دراسات في كليات الصيدلة .

المقالة السادسة : في التقاط الأدوية وادخارها ، ويذكر فيها الأدوية المعدنية والحيوانية والنباتية ، وعن الأخيرة يقول : «أما النباتية ، فمنها أوراق ، ومنها بذور ، ومنها أصول وقضبان ، ومنها زهر ، ومنها ثمار ، ومنها جملة النبات كما هو» [١] . والجدير بالذكر أن بعض كتب العقاقير التي تدرس في العصر الحديث ، في كليات الصيدلة ، قد قسمت أبوابها وفصولها حسب العضو المستعمل في الدواء ، وهذا يطابق ما قدمه ابن سينا عن الأدوية النباتية .

وقد وضع ابن سينا معايير لجمع النباتات الطبية أو أجزائها أهمها وقت جمع النبات وموسمه ، وتؤكد الدراسات الحديثة على هذا المعيار ، فقد أثبتت التجارب أن المواد الفعالة في عضو ما بجسم النبات ، تتأثر كميتها بالوقت والموسم الذي تُجمع فيه ، فقد تقل أو تكاد تختفي بعض المواد الفعالة في نبات اللحلاح (خميرة العرب ، العُكْنة) Colchicum autumnale ، أو بصل العنصل (بصل فرعون- الإشْقيل) Urginea maritima على سبيل المثال لا الحصر ، إذا ما جمع النبات في موسم غير فصل الخريف .

---

* كالترياق ولكنه من المعدنيات ، وابن سينا يقول ألا فرق بينهما كثير .

(١) ص ٢٣٨ .

وبيَّن ابن سينا شرائط لجمع الأجزاء المختلفة من النبات ، وهذا يتفق تماما مع شرائط جمعها في ضوء المعارف العلمية الحديثة ، حتى تحتوي على أكبر قدر من المادة الفعالة ، ونوجز ما أورده ابن سينا في هذا الصدد . إذ يقول : «والأوراق يجب أن تجتنى بعد تمام أخذها من الحجم الذي لها ، وبقائها على هيئتها ، قبل أن يتغير لونها وينكسر ، فضلا عن أن تسقط وتنتثر ، وأما البذور ، فيجب أن تلتقط بعد أن يستحكم جرمها ، وتنفش عنها الفجاجة والمائية . وأما الأصول ، فيجب أن تؤخذ كما تريد قبل أن تسقط الأوراق ، وأما القضبان ، فيجب أن تجتنى وقد أدركت ، ولم تأخذ في الذبول والتشنج . وأما الزهر ، فيجب أن يجتنى بعد التفتيح التام ، وقبل التَّذَبل والسقوط . وأما الثمار ، فيجب أن تجتنى بعد تمام إدراكها ، وقبل استعدادها للسقوط . وأما المأخوذ بجملته فيجب أن يؤخذ على غضاضته عند إدراك بذره ، وكلما كانت الأصول أقل تشنجا ، والقضبان أقل تذبلا ، والبذور أسمن ، وأكثر امتلاء ، والفواكه أشد اكتنازا وأرزن ، فهو أجود»[١] .

ويؤكد ابن سينا حقيقة علمية ، أثبتتها الدراسات الحديثة ، فيقول عن النباتات الطبية والبرية : «كلها أقوى من البستانية ، وأصغر حجما في الأكثر» . وقد أثبتت نتائج البحوث الحديثة أن نباتا مثل السكران Hyoscyamus muticus تنقص فيه كمية القلوانيات Al-kaloids ، وهي المواد الفعالة التي يحتوى عليها ، عند زراعته وريِّه ، بينما تحوي النباتات البرية منه ، التي تعيش في بعض صحارى الوطن العربي ، كمية كبيرة من هذه القلوانيات . وقد سجلت البحوث ملاحظات مماثلة على غيره من أنواع النباتات الطبية البرية ، كما أوضحت الدراسات الحديثة أن النبات البري ، الذي يتعرض غالبا لنقص في بعض احتياجاته من بيئته ، ينمو بمعدل أكبر عند استزراعه ، وقد يشذ عن ذلك بعض الأنواع النباتية . لذا نلمس الدقة في تعبير ابن سينا ، حيث يقول في نهاية جملته : «في الأكثر» . إنها تعبيرات علمية دقيقة ، لم تُلق على عواهنها أو علاتها ، إنما صدرت بعد استقراء تضمن الملاحظة والتجريب . وإنه لحَرِيٌّ بعلماء الصيدلة وكيمياء النبات في عصرنا الحديث ، خاصة المهتمين بالتراث العلمي الإسلامي ، أن يربطوا بين نتائج دراساتهم ، وبين ما توصل إليه العلماء المسلمون في هذا المجال ، على الأقل ، مثلما يشيرون بكل اعتزاز إلى اتفاق نتائجهم مع نتائج علماء الغرب .

(١) ص ٢٣٨ .

ومما يدعو إلى الإكبار والتقدير ، أن ابن سينا في عرضه لمفردات النباتات الطبية والعقاقير ، اتبع منهجا علميا لا يُبارى ، من حيث ما أورده مقابل كل عقار ، وقد اتبع في ترتيب الأدوية المفردة ، ترتيب حروف أبجد هوز . . . .الخ . ويقول : «إني أذكر في هذا القسم أسماء الأدوية على ترتيب حروف الجمل ، ليسهل على المشتغل بهذه الصناعة التقاط منافع الأدوية كلٌ فيما يختص بعضو عضو . . .» ولو أن هذا الترتيب لم يتبعه كثير من اللاحقين ، بل رتبوا مصنفاتهم حسب حروف المعجم .

وابن سينا في عرضه لما يزيد عن ثمانمائة دواء مفرد ، يوضح مقابل معظمها ، خصائص ذوات أهمية في التعرف على الدواء وفعله في الأعضاء المختلفة من بدن الإنسان ، وأوردها في كتابه على النحو الآتي :

١- أسماء الأدوية المفردة وتعريف ماهيتها .

٢- اختيار الجيد منها .

٣- كيفياتها وطبائعها .

٤- خواص أحوالها وأفعالها الكلية ، مثل التحليل والإنضاج والتَّغْرِية والتخدير وغير ذلك من الأفعال .

٥- أفعالها التي تتعلق بالزينة في الجلد والشعر ، أو أية أعضاء أخرى .

٦- أفعالها في الأورام والبثور .

٧- أفعالها في القروح والجراحات والكسور .

٨- أفعالها في أمراض المفاصل والأعصاب .

٩- أفعالها في أمراض أعضاء الرأس .

١٠- أفعالها في أمراض أعضاء العين .

١١- أفعالها في أمراض أعضاء النفس والصدر .

١٢- أفعالها في أمراض أعضاء الغذاء .

١٣- أفعالها في أمراض أعضاء النفض .

١٤- الحميات .

١٥- نسبة الأدوية للسموم .

١٦- في إبدالها حيث لا يوجد المقصود من الأدوية .

ونعتقد أنه لو قُيِّض لشخص أن يسجل كل ما أورده ابن سينا ، في ضوء المعارف الحديثة ، مقابل العقاقير المعروفة ، لكان موسوعة تحتاج مئات السنين في تصنيفها . ولذلك فلا غرابة أن يظل كتاب «القانون في الطب» المرجع الرئيس لطلاب الطب في أوروبا عبر عدة قرون (انظر الأشكال من ١ إلى ٣ التي تمثل غلاف ترجمات لاتينية لكتاب القانون لابن سينا) .

كتاب الجامع لمفرادت الأدوية والأغذية
لابن البيطار
(المتوفى في دمشق في ٦٤٦هـ/١٢٤٨ م)

ويعد هذا الكتاب من أغزر كتب المفردات مادة ، لأنه جمع المعروف منها منذ أقدم عصور التأليف فيها عند اليونانيين ، إلى أن تعاورها المسلمون في العصر العباسي ترجمة ، ثم تجربة ، ثم تحقيقا وتأليفا . وقد وصف ابن البيطار في هذا الكتاب ما ينوف عن ١٤٠٠ عقار ، منها ثلاثمائة عقار لم يرد ذكرها في المؤلفات الأخرى . وقد سافر ابن البيطار إلى أنحاء كثيرة من المعمورة للحصول على نباتات جديدة ، ولتحقيق النباتات التي كتب عنها الأولون . وهو بأسفاره تلك عالم طبيعي ميداني ، يدرس الأشياء عن كثب في أماكنها الطبيعية ، ويتحقق منها بنفسه . ولا شك أن هذا العمل العلمي أضاف الكثير ، وحفظ الكثير كذلك . وقد طبع الكتاب أكثر من مرة باللغة العربية (بولاق سنة ١٢٩١هـ) . كما طبعت أجزاء منه بترجمتها اللاتينية عام ١٧٥٨م بمدينة قرمونة . كما ترجمت أجزاء منه إلى لغات أخرى ، مثل الفرنسية والألمانية .

ولقد سار ابن البيطار على نمط في البحث يشبه الطريقة العلمية الحديثة ، أو المنهج التجريبي ، ونبين أهم ما نهج عليه ابن البيطار في مؤلفه على النحو الآتي :

١- يتحدث ابن البيطار فيقول : «قد استوعبت القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار ، عند الاحتياج إليها في ليل أو نهار . واستوعبت فيه جميع ما في المقالات الخمسة من كتاب الأفضل ديوسقوريدس بنصِّه ، وكذلك فعلت أيضا بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في المقالات الستة من مفرداته بنصِّه ، ثم ألحقت بقولهما أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والحيوانية ما لم يذكراه . ووصفت فيها عن ثقات المحدثين ما لم يَصِفاه ، وأسندت في جميع تلك الأقوال قائليها ، وعرَّفت طرق النقل فيها بذكر ناقليها ، واختصصت بما تم لي به من الاستعداد ، وصح لي القول فيه ، ووضح عند الاعتماد عليه» .

إن ما اختطه ابن البيطار في كتابه يؤكد أن اسم هذا الكتاب «الجامع» اسم في محله ، فإننا نقرأ فيه ما كتبه اليونانيون منذ عهد ديوسقوريدس ، وما كتبه بعده جالينوس الطبيب ، ثم نجد تجارب الهنود والمصريين القدماء ، إلى جانب ما أضافه وحققه الأطباء المسلمون ، كالرازي وابن سينا من المشارقة ، وكابن جلجل ، وابن وافد ، والغافقي من الأندلسيين . وهكذا يؤكد ابن البيطار على الأمانة في النقل ، والاستيعاب الواعي الذكي لما اطلع عليه ، والإضافة والنقد والتحليل .

٢- الاعتماد على التجربة . فعلاوة على توخِّيه صحة النقل فيما ذكره عن المتقدمين ، وأحرزه من المتأخرين فإنه يقول : «فما صح عندي بالمشاهدة والنظر ، وثبت لدي بالخبرة لا الخبر ادخرته كنزا سريا ، وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيا ، وما كان مخالفا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية ، في المنفعة والماهية ، وللصواب والتحقيق ، أو أن ناقله أو قائله عدلا فيه عن سواء الطريق ، نبذته ظهريا وهجرته مليا ، وقلت لناقله أو قائله : لقد جئت شيئا فَرِيّا ، ولم أحابِ في ذلك قديما لسبقه ، ولا محدثا اعتمد غيري على صدقه» .

مما لا شك فيه أن ابن البيطار قد نقل عن غيره ، لكنه لم يكن نقل الناسخين ، وإنما استشهاد العالم الخبير المدقق ، غير المستسلم لأقوال غيره دون ثبات لديه بالخبرة لا الخبر . وإنه لمنهج علمي ، قلَّ من يتبعه في أيامنا هذه .

٣- تحاشي التكرار ، حيث يقول : «ترك التكرار حسب الإمكان ، إلا فيما تمس الحاجة إليه في معنى أو بيان» .

٤- حسن الترتيب والتبويب في كتابه ، فيقول عنه : «وتقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم مقفى ، ليسهل على الطالب ما طلب ، في غير مشقة ولا عناء ولا تعب» .

٥- التأكيد على مبدأ التحقيق العلمي ، فكثيرا ما يتعقب المترجمين لكتاب ديوسقوريدس في تسمية النباتات وأوصافها ، ويصحح أخطاءهم في وصفها واستعمالها ، ومقادير ما يؤخذ منها في العلاج ، وما يبدل منها إذا عدمت . ويقول في ذلك : «التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر ، لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل ، واعتمادي على التجربة والمشاهدة ، حسب ما ذكرت من قبل» . ولذلك رحل إلى دول شمال أفريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط وبلاد

اليونان والروم . وساعده ذلك في التعرف علي كثير من الحقائق ، لذلك نرى في كتابه كثيرا من المآخذ والاستدراكات ، استدركها على المترجمين ، وعلى من تبعهم من المؤلفين .

٦- تسجيل أسماء الأدوية بلغات عديدة ، وضبط هذه الأسماء ،حيث يقول : «أسماء الأدوية بسائر اللغات المتباينة في السمات ، مع أني لا أذكر فيه ترجمة دواء- إلا وفيه منفعة مذكورة ، أو تجربة مشهورة - وذكرت كثيرا مما يعرف في الأماكن التي تنبت فيها الأدوية المسطورة ، كالألفاظ البربرية واللاتينية ، وهي أعجمية الأندلس ، إذا كانت مشهورة عندنا ، وجاء بها في معظم كتبنا ، وقيَّدتُ ما يجب تقييدهّ منها بالضبط والشكل والنقاط ، تقييدا يؤمن معه التصحيف ، ويسلم قارئه من التبديل والتحريف إذ كان أكثر الوهم والغلط الداخل على الناظرين في الصحف ، إنما هو من تصحيفهم لما يقرءونه ، أو سهو الوراقين فيما يكتبونه ، وسميته الجامع ، لكونه جمع بين الدواء والغذاء ، واحتوى على الغرض المقصود مع الإيجاز والاستقصاء» .

ولا جدال في أن ما اتبعه ابن البيطار في دراسته للنباتات الطبية والعقاقير والكتابة فيها يساير أحدث المناهج العلمية من أمانة النقل ، وتحقيق لما ينقل ، ومشاهدة ونظر واختبار ، ونقد وتحليل ، لما جاء به من سبقوه سواء النقلة أو المؤلفون الأصليون .

وربما يؤخذ على ابن البيطار ، أنه لم يجمع أقوال من سبقوه ، كلٌّ في موضع واحد ، وفي الحديث عن المادة الطبية الواحدة ، فينقل رأيا لجالينوس عن مادة ، وينتقل إلى ما قاله ديوسقوريدس عنها ، ثم يعود مرة أخرى إلى رأي لجالينوس . ومع ذلك فإن هذا المأخذ لا يقلل من قيمة كتابه «الجامع» .

تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب

لداود بن عمر الأنطاكي

(المتوفى ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩م)

«التذكرة» كتاب علمي قيِّم ، حوى العديد من المعارف والمعلومات عن كثير من النباتات الطبية والعقاقير ، جمع فيه صاحبه ، على الرغم من أنه كان ضريرا ، خلاصة ما وصلت إليه المعارف والعلم حتى سنة ٩٧٦هـ كما ذكر في مقدمة كتابه . وما زالت «التذكرة» تمثل المرجع لكثير من العشابين والعطارين في معظم المدن العربية ، ولعله أشهر كتاب في هذا المجال . وعلى الرغم من انتشار الصيدليات ، وما بها من أدوية وعقاقير

حديثة ، إلا أن حوانيت العطارة ما زالت صامدة ، يطرقها الكثيرون طلبا للتداوي بما يصفه العطارون ، وبما يقدمونه من عقاقير ، يستعينون في تجهيزها وتركيبها بما ورد في كتب مثل «التذكرة» .

يقول الأنطاكي عن كتابه : ورتبته حسبما تخيَّلته الواهمة على مقدمة ، وأربعة أبواب ، وخاتمة .

أما المقدمة : ففي تعداد العلوم المذكورة في هذا الكتاب ، وحال الطب معها ، ومكانته ، وما ينبغي له ولمتعاطيه ، وما يتعلق بذلك من الفوائد .

والباب الأول : في كليات هذا العلم والمدخل إليه .

والباب الثاني : في قوانين الإفراد والتركيب ، وأعماله العامة ، وما ينبغي أن يكون عليه من الخدمة ، في نحو السحق والقلي والغسل ، والجمع والإفراد ، والمراتب ، والدرج ، وأوصاف المقطع والملين والمفتح ، إلى غير ذلك .

والباب الثالث : في المفردات والمركبات وما تعلق بها من اسم وماهية ومرتبة ونفع وضرر وقدر وبدل وإصلاح ، مرتبا على حروف المعجم .

والباب الرابع : في الأمراض وما يخصها من العلاج وبسط العلوم المذكورة وما يخص العلم من النفع ، وما يناسبه من الأمزجة ، وما له من الدخل في العلاج .

والخاتمة : في نكت وغرائب ولطائف وعجائب .

ونظرة سريعة أو متفحصة إلى هيكل كتاب التذكرة تعطي فكرة واضحة عن التسلسل المنطقي في عرض موضوع معقد ومتشعب ، مثل موضوع كتاب «التذكرة» . إن التتابع المنطقي في تبويب الكتاب ، على الرغم من تأليفه في زمان يسبق زماننا بأكثر من أربعة قرون ، ليدل دلالة قاطعة على قدرة المؤلف وصفاء ذهنه .

والمنهج العلمي الذي اتبعه الأنطاكي في كتابه ، يدعو للتقدير والاحترام ، فهو يقرر في أمانة علمية ، ما لجأ إليه من مصادر لتذكرته ، فيقول : «نحن كالمقتبسين من تلك المصابيح ذُبالة ، والمغترفين من تلك البحور بُلالة» .

ومنهج العرض التاريخي لمن ألف وكتب في موضوع أي كتاب من قبل يظهر في مقدمة الأنطاكي لكتابه ، وما زال العلماء حتى الآن - وسيظلون على ذلك- يبدأون دراساتهم بالعرض التاريخي لدراسة موضوع بحثهم . ونحن هنا نسجل ما ذكره الأنطاكي في

هذا الصدد ، للتأكيد على ما ذكرناه من منهج ، وللإفادة من هذا المسرد التاريخي . يقول الأنطاكي : «وأول من ألف شمل هذا النمط ، وبسط للناس فيه ما انبسط ، ديوسقوريدس اليوناني في كتابه الموسوم بالمقالات في الحشائش ، ولكنه لم يذكر إلا الأقل ، حتى إنه أغفل ما كثر تداوله ، وامتلأ الكون بوجوده ، كالكمون والسقمونيا والغاريقون ، ثم روفس ، فكان كلامه قريبا من كلام الأول ، ثم فولس ، فاقتصر على ما يقع في الأكحال خاصة ، على أنه أخل بمعظمها ، كاللؤلؤ والإثمد ، ثم أندرماخس الأصغر ، فذكر مفردات الترياق الكبير فقط ، ثم رأس البغل الملقب بجالينوس ، وهو غير الطبيب المشهور ، فجمع كثيرا من المفردات ، ولكنه لم يذكر إلا المنافع خاصة دون باقي الأحوال ، ولم أعلم من الروم مؤلِّفا غير هؤلاء ، ثم انتقلت الصناعة إلى أيدي النصارى ، فأول من هذب المفردات اليونانية ، ونقلها إلى اللسان السرياني دويدرس البابلي ، ولم يزد على ما ذكره شيئا ، حتى جاء الفاضل المعرب ، والكامل المجرب ، إسحاق بن حنين النيسابوري ، فعرَّب اليونانيات والسريانيات ، وأضاف إليها مصطلح الأقباط ، لأنه أخذ العلم عن حكماء مصر وأنطاكية ، واستخرج مضار الأدوية ومصالحها ، ثم تلاه ولده حنين ، ففصل الأغذية من الأدوية فقط ، ولم أعلم من النصارى من أفراد هذا الفن غير هؤلاء ، وأما النجاشعة فلهم كثير من الكُنَّاشات ، ثم انتقلت الصناعة إلى الإسلام . وأول واضع فيها الكتب من هذا القسم ، الإمام محمد بن زكريا الرازي ، ثم مولانا الفرد الأكمل ، والمتبحر الأفضل الأمثل ، الحسين عبد الله بن سينا ، رئيس الحكماء ، فضلا عن الأطباء ، فوضع الكتاب الثاني من القانون ، وهو أول من مهد لكل مفرد سبعة أشياء ، وأخلَّ بالأغلب ، إما لاشتغال باله ، أو لعدم مساعدة الزمان له ، ثم ترادف المصنفون على اختلاف أحوالهم ، فوضعوا في هذا الفن كتبا كثيرة ، من أجلِّها مفردات ابن الأشعث ، وأبي حنيفة والشريف ابن الجزار ، والصائغ ، وجرجس بن يوحنا ، وأمين الدولة وابن التلميذ ، وابن البيطار ، وصاحب ما لا يسع جهله ، وأجل هذه الكتب ، الكتاب الموسوم بمنهاج البيان ، صناعة الطبيب الفاضل يحيى بن جزلة رحمه الله تعالى ، فقد جمع المهم من قسمي الإفراد والتركيب ، في ألطف قالب وأحسن ترتيب . وأظن أن آخر من وضع في هذا الفن الحاذق الفاضل محمد ابن علي الصوري» .

إن هذا التأريخ للكتابة في الأدوية المفردة والمركبة ، استوعب جُلَّ ما كُتب ، على الرغم من إيجازه ، بل إن الأنطاكي وجه النقد لبعض المؤلفين بأسلوب بسيط ، خلال عرضه لهذا التاريخ الحافل ، وبعد عرضه هذا ، يوضح الأنطاكي بعض المثالب ، وينتقد النقص في بعض هذه الكتب ، منتهجا منهجا علميا في النقد الذي يعتمد على المعرفة والتجريب ،

فيقول : «وكلٌ من هؤلاء-يقصد من ألف في المفردات والمركبات الدوائية- لم يَخْلُ كتابه ، مع ما فيه من الفوائد ، عن إخلال بالجليل من المقاصد ، إما ببدل أو إصلاح ، أو تقدير ، أو إطلاق للمنفعة وشرطها التقييد . . .» وضرب العديد من الأمثلة للأخطاء التي وقع فيها مَنْ سبقه من المؤلفين . وهذا يوضح لنا منهج التحقيق العلمي فيما ينقله الأنطاكي عن السابقين . وعلى هذا المنهج العلمي السليم ، يمضي الأنطاكي في وصفه للعقاقير والنباتات الطبية ، مؤكدا : «إنا ننتخب لُبَّ كتب تزيد على مائة خصوصا من القرابازينات ، يعني التراكيب ، والكُنَّاشات . . .» .

وعلى الرغم من تباعد زماننا عن زمان الأنطاكي ، مع تطور العلوم ووسائل البحث العلمي ، فإن الأنطاكي وضع قوانين لوصف العقاقير والأدوية ، تمثل الدقة المتناهية في المعرفة بهذه العقاقير ، وتفهم أصول العمل بها ، والاستفادة منها وتوضح المنهج العلمي في هذا المجال . فيقول الأنطاكي عن المفردات الطبية : «اعلم أن كل واحد من هذه المفردات يفتقر إلى قوانين عشرة» .

وهذه البيانات العشرة التى ينبغي أن تذكر مع كل مفرد من المفردات الطبية هي :

١ - ذكر أسمائه بالألسن المختلفة ليعمَّ نفعه .

٢ - ذكر ماهيته من لون ، ورائحة ، وطعم ، وتَكَرُّج ، وخشونة ، وملامسة ، وطول وقصر .

٣ - ذكر جيِّده و رديئه ليؤخذ أو يُجتنب .

٤ - ذكر درجته في الكيفيات الأربعة ، ليتبين الدخول به في التراكيب .

٥ - ذكر منافعه في سائر أعضاء البدن .

٦ - كيفية التصرف به مفردا ، أو مع غيره ، مغسولا أو لا ، مسحوقًا في الغاية أو لا ، إلى غير ذلك .

٧ - ذكر مضاره .

٨ - ذكر ما يصلحه .

٩ - ذكر المقدار المأخوذ منه منفردا أو مركبا ، مطبوخا أو منشفا . بجرمه أو بعصارته ، أوراقا أو أصولا ، إلى غير ذلك من أجزاء النباتات التسعة .

١٠ -ذكر ما يقوم مقامه إذا فقد .

وأضاف الأنطاكي أن بعضهم زاد أمرين آخرين : الأول الزمان الذي يقطع فيه الدواء ويدخر ، والثاني من أين يجلب الدواء .

وباستعراضنا لهذه القوانين للكتابة عن المفردات الطبية ، فإنه مما لا شك فيه أن أي كتاب عن النباتات الطبية يلتزم مؤلفه بهذه القواعد ، سيكون موسوعة علمية ، تفوق قدرة أي عالم واحد على استيعابها . وعلى الرغم من غياب الإمكانيات المتاحة في عصر الأنطاكي ، فإنه تمكن بمفرده من إعداد هذا الكتاب القيم . وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة تسع مرات على الأقل من سنة ١٢٥٤ حتى سنة ١٣٢٤هـ .

نظرة علمية في مثال من النباتات الطبية

ورد ذكره في المصنفات الثلاثة

واستكمالا لجولتنا العلمية في كتب التراث الثلاثة التي تناولناها ، اخترنا مفردا من المفردات الدوائية التي ورد ذكرها في الكتب الثلاثة ، وهو نبات الكَبَار .Capparis spinosa وهو نبات له أسماء عديدة نذكر منها : (كَبر) : كَبَار- قَبَّار- أَصَف- لَصَف- شَفَلَّح (قد تطلق المسميات الثلاثة الأخيرة على الثمرة) .

والكبار نبات ينمو في صحاري الوطن العربي ، وبلدان البحر الأبيض المتوسط ، في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا . وينمو في الأراضي الصخرية في المناطق الجبلية . وتستعمل براعم أزهاره ، وأزهاره و أوراقه وقلف جذوره في التداوي من بعض الأمراض ، كما تملَّح وتخلَّل براعم أزهاره وأزهاره .وتستعمل براعم أزهاره المخللة في تتبيل البيتزا . وسنعرض ما ذكره المصنفون الثلاثة في كتبهم التي ذكرناها . وطعم النبات حريف ، وله طعم المستردة لما يحويه من مواد كبريتية .

ماذكره ابن سينا

(كَبَر)

(الماهية) هو ثمر وله أصل ثمرة أخرى كالقثاء غير الكبر وهي حريفة حارة يجعل في العصير فيحفظه من الغليان كالخردل [١] وأصله مر حريف ومنه نوع قلزمي مبثر للفم إلى حد أن ينفظ [٢] ويورم اللثة .

(الاختيار) أنفع ما فيه قشور أصله[٣] .

---

(١) هذا يدل على أن النبات يحتوي على مادة مضادة للبكتريا والفطريات . وقد ثبت ذلك حديثا

(٢) (في الأصل ينفظ) ينفظ : النفطة هي البثرة ويعني أنها تسبب بثورا .

(٣) قشور القَلَف bark ، الأصل= الجذر .root

(**الطبع**) الكائن في البلاد الحارة أحر وحر جميعه ويبسه في الثانية[١] .

(**الخواص**) هو محلل مفتح جلاء ، وأصله مقطع منق مفتح في قشوره مرارة وحرافة وقبض[٢] ، وغذاء ثمرته قليل لا سيما إذا ملح[٣] ، ورطبه أغذى من يابسه .

(**الأورام والبثور**) أصله[٤] مُحلل للخنازير[٥] والصلابات ، ويخلط به ما يكسر قوته وقد جرب ورقه لذلك .

(**الجراح والقروح**) قشور أصله إذا وضع على الجراحات الخبيثة والوسخة نفعها أعظم منفعة .

(**آلات المفاصل**) قشور أصله نافع لعرق النسا وأوجاع الورك ، وقد يحتقن بعصيره فينفعه جدا وينفع من الفالج[٦] والخدر ، ويشد الأعضاء بما فيه من القبض ولذلك ينفع من الهتك العارض في رؤوس العضلة وأوساطها .

(**أعضاء الرأس**) قشور أصله يمضغ فيجلب الرطوبة من الرأس ويسكن الوجع البارد فيه وعصارته تقطر في الأذن لديدانها[٧] . وقد يعض على قشور أصله بالسن الألم فينفع وخصوصا إذا كان رطبا ، أو ورقه وكذلك المضمضة بخل طبخ فيه أو بشراب أو مرة بشراب ومرة بخل .

(**أعضاء النفس والصدر**) ينفع المملوح منه أصحاب الربو[٨] .

(**أعضاء الغذاء**) أنفع شيء للطحال وصلابته مشروبا وضمادا[٩] بدقيق الشعير ونحوه وخصوصا قشر أصله ، وكثيرا ما يستفرغ من الطحال مادة غليظة سوداوية فيعقبه[١٠] العافية .

---

(١) هذا أمر ثبت علميا وهو أن تحتوي نباتات بعض الأنواع على مواد فعالة أكثر إذا ماتعرضت لظروف حارة أو جافة .
(٢) هذا يعني أن قلف الجذور يحتوي على مواد فعالة مختلفة ، وأثبتت الدراسات ذلك .
(٣) تخلل براعم الأزهار وتوضع لتتبيل البيتزا - ويحصل عليها من نباتات تزرع في جنوب أوروبا وإسبانيا لهذا الغرض ، وفي العراق تكبس (تملّح) الأزهار وبراعمها للأكل .
(٤) جذره .
(٥) Scrofula
(٦) Hemiplegia
(٧) مرض يسمى النُّغَف .Myiasis
(٨) Asthma
(٩) Cataplasm, Poultice
(١٠) فتعقبه .

(**أعضاء النَّفض**) يسهل خلطا خاما غليظا ويدر الطمث[١] ، ويقتل الحيات والديدان في المعى[٢] ، وينفع من البواسير[٣] ، ويزيد في الباه[٤] ، والمملح منه قبل الطعام مطلق .

(**السموم**) هو ترياق[٥] جيد .

ماذكره ابن البيطار

(كَبَر)

*ديوسقوريدس في الثانية : هو شجيرة مشوكة منبسطة على الأرض باستدارة ، وشوكتها معقفه مثل الشصوص على شكل شوك العليق ، ولها ورق شكله مثل شكل السفرجل ، وثمر شبيه بالزيتون في شكله إذا انفتح ظهر منه زهر أبيض وإذا سقط منه الزهر كان شبيها بالبلوط مستطيلا ، إذا فتح ظهر من جوفه شبيه بحب الرمان صغار حمر وأصوله كبار في حد الخشب كثيرة ، وينبت في أماكن خشنة وأرض نباتها قليل لغلبة الحجر عليه وجزائر وخرابات[٦] .

جالينوس في ٦ : قشر أصل الكبر الغالب عليه الطعم المر ، وبعده الطعم الحريف ، وبعدهما الطعم القابض . وهذا مما يدل على أنه مركب من قوى مختلفة متضادة[٧] . وذلك أنه يقدر أن يجلو وينقى ويفتح ويقطع لمكان مرارته وأن يسخن ويحلل لمكان حرافته ، وأن يجمع ويشد ويكنز لمكان قبضه ، ولذلك صار قشر هذا الأصل أنفع من كل دواء آخر يعالج به الطحال الصلب إذا ورد إلى داخل البدن أيضا بأن يشرب بالخل أو بالخل والعسل وبغير ذلك مما أشبهه أو بأن يخفف ويسحق ويخلط بهذه ، وذلك أنه يقطع الأخلاط الغليظة اللزجة إذا شرب على هذه الصفة تقطيعا بينا ويخرجها في البول وفي الغائط ، ومرارا كثيرة قد يخرج مع الغائط شيئا دمويا فيسكن الطحال ويخفف أمره على المكان ، وكذا يفعل في وجع الورك[٨] . وهو مع هذا يدر الطمث[٩] ويحدر البلغم[١٠] إذا تغرغر به الإنسان وإذا مضغه ، وينفع

---

(١) Emmenagogue

(٢) Anthelminitic

(٣) Hemorrhoid

(٤) Aphrodesiac

(٥) Antidote

(٦) اللافت للنظر أن هذا الوصف سواء للنبات أو للموئل الذي يعيش فيه ، لا يكاد يختلف عن الوصف العلمي الحديث .

(٧) الطريف أن البحث العلمي الحديث أثبت وجود عشرات المركبات في هذا النبات .

(٨) قد يكون هذا هو عرق النسا .

(٩) Emmenagogue

(١٠) Expectorant

من الهتك العارض الذي يقع في رأس العضلة وفي وسطها ، وإذا وضع أيضا قشر هذا الأصل على الجراحات الخبيثة كما يوضع الضماد نفعها أعظم المنفعة من طريق أنه يقدر أن يجففها ويجلوها جلاء وتخفيفا قويا ، وكذا ينفع من وجع الأسنان مرة إذا استعمل بالخل ، ومرة إذا استعمل مطبوخا بالشراب ، ومرارا كثيرة يستعمل أيضًا وحده بأن يعض عليه الإنسان ويمضغه ، وقد يجلو البهق إذا طلي عليه بالخل[١] ، ويحلل الخنازير[٢] والأورام الصلبة إذا خلط مع الأدوية النافعة لذلك .

وأما ثمرة هذا النبات فقوّتها على مثال قوة قشر الأصل منه إلا أنها أضعف من القشر وأما ورقه وقضبانه فقوّتها أيضا تلك القوة وأني لأعلم أني حللت في بعض الأوقات صلابة الخنازير في أيام يسيرة بورق الكبر وحده ، وقد يخلط مع الورق بعض الأشياء التي يمكن فيها أن تكسر من شدة قوته وإذا كان هذا الورق كذلك فليس من العجب أن تكون عصارته تقتل الدود في الأذن[٣] لمكان مرارتها . فأما الكبر الذي يكون في البلد الكثير الحرارة بمنزلة الكبر الذي في بلاد تهامة فهو أشد حدة وحرافة من الذي يكون عندنا بمقدار كثير جدا ففيه بهذا السبب من القوة المحرفة مقدار ليس باليسير[٤] وقال في كتاب أغذيته ثمرته المملحة قبل الغسل تطلق البطن ولا تغذو البتة وأما إذا غسلت ونقعت حتى تذهب عنها قوة الملح بتة صارت على مذهب الطعام تغذو غذاء يسيرا جدا ، وإما علي مذهب الإدام التي يتأدم بها فتؤكل مع الخبز ليطيب بها أكله ، وإما على مذهب الدواء فإنها تكون حينئذ موافقة لتحريك الشهوة المقصرة ولجلاء ما في المعدة والبطن من البلغم وإخراجه بالبراز ولتفتيح ما في الكبد والطحال من السدد وتنقيتهما . ومتى استعملت هذه الثمرة في هذا الوجه فينبغي أن تستعمل مع خل وعسل أو مع خل وزيت قبل سائر الطعام كله وقضبان الكبر أيضا يؤكل طريها كما يؤكل قضاب البُطُم[٥] ويكبس أيضا كما تكبس تلك إما في الخل والملح وإما في الخل وحده .

ديوسقوريدس : وقد تعمل قضبانه وثمره بالملح ، وإذا أُكل ليَّن البطن وهو ردئ للمعدة معطِّش ، وإذا أكل مطبوخا كان طيب الطعم ، وإذا شرب من ثمره ثلاثين يوما في كل يوم وزن

(١) توجد دراسات حديثة عن الأمراض الجلدية التي تعالج بمكونات هذا النبات .
(٢) Scrofu
(٣) دود الأذن مرض يسمى النُّغَف Myiasis
(٤) هذا أمر ثبت علميا كما سبق أن ذكرنا .
(٥) Pistacia atlantica

درهمين بشراب حلل ورم الطحال ، ويدر البول ويسهل الدم . وإذا شرب نفع عرق النسا[١] ومن الداء المسمى قوالوسيس ، ومن وهن العضل وإذا شرب أدرّ الطمث وإذا مضغ قلع البلغم . وثمره إذا طبخ بالخل وتمضمض بطبيخه سكن وجع الأسنان .

وقشر أصل الكبر حار يوافق الأمراض التي ذكرناها ويوافق القروح المزمنة الوسخة الجاسية ، وقد يخلط بدقيق الشعير ويتُضمد به للورم في الطحال ، ومن كان بسنه ألم فعض على أصل الكبر بسنه الألم نفعه من ألمه ، وإذا دُقّ ناعما وخُلط بالخل ولطخ على البهق الأبيض جلاه ، وإذا دق ورقه وأصله واستعمل للخنازير والأورام الصلبة حللها ، وإذا دق وأخرج ماؤه وقطر في الأذن قتل الدود المتولد فيها والكبر النابت في البلاد التي يقال لها مرماريط[٢] ينفخ نفخا مفرطا والكبر الثابت في البلاد التي يقال لها أقوليا يحرك القيء ، والكبر الذي من بحر القلزم[٣] والذي من نينوي حريف جدا ينفط الفم[٤] ويأكل اللثة حتى تتغير منه الأسنان فلذلك لا يصلح هذا الصنف من الكبر للمطعم .

* ابن ماسويه : والكبر النابت في البلاد وفي المروج والآجام كثير النفخ ، فلذلك ينبغي أن لا يتعرض لما ينبت منه في هذين الموضعين .
* البصري : ورق الكبر وثمره متساويان في القوة إلا أن في الثمر بعض الزيادة على الورق وأقوى منهما أصله ، واليبس في أصله أغلب من الحر . والكبر حار يابس في الدرجة الثالثة رديء للمعدة وإن نقع بخل ذهب الخل بضرره للمعدة .
* الفارسي : الكبر ترياق[٥] يطيب الفم ويطرد الريح ويزيد في الباه .
* الجون : يشفي النواصير التي تكون في الآماق وأصله جيد للبواسير إذا دخن به .
* الطبري : أصله ينفع من القروح الرطبة إذا وضع عليها من خارج . وإذا طبخ وصب ماؤه على الرأس الذي فيه قروح رطبة نفعه وإذا أكل مع الفلفل والسذاب نفع من السدة التي تكون في الكبد من البرد .

---

(١) Sciatica

(٢) مارماريكا Marmarica - Mareotis منطقة مربوط غرب الإسكندرية حتى حدود مصر مع ليبيا .

(٣) خليج السويس ، واللافت للنظر أن الجبال المتاخمة لخليج السويس ينمو فيها نوع من الكبر وهو مختلف عن النوع الموجود في الساحل الشمالى .

(٤) يؤدي إلى ظهور بثور .

(٥) Antidote

*اسحق بن عمران : حبُّه رديء الغذاء يتعفن فيصير مرة سوداوية ، وقضبانه أجمد منه .

* ابن سمحون ، قال ابن ماسه : الكبر وفقاحه[١] وقضبانه نافعة للطحال ، فإذا أريد اتخاذه فينبغي أن ينقع بماء وملح أياما ثم يغسل بماء عذب مرتين أو ثلاثا ثم يخلل ، فإذا عزم على أكله لذلك يكون بعد أربعين يوما بعد أن يصب عليه زيت مغسول . قال : وكامخ[٢] الكبر من صالحي الكوامخ المسخنة للمعدة وأقلها ضررا وينبغي أن يؤكل بالزيت قبل الطعام لسرعة انهضامه وأنه لا يبطيء في المعدة وهو يصدع الرأس إذا أكثر منه وكامخ حب الكبر أيضا مثله في كل أحواله إذا صير معه صعتر[٣] رطب أو أفرنجمشك أو مرماخور[٤] وكامخ الكبر جيد للمعدة والطحال .

* التجربتين : ورقه ولحاء أصله إذا جُفِّف وسُحق وأضيف أحدهما إلى الزفت وضمد به قروح الرأس الشهدية اليابسة العتيقة أبرأها إذا تمودى عليه ، وكذا يفعل في القروح الخبيثة الغليظة المواد ولا سيما إذا كانت في الأعضاء الجافة ، وتستعمل في المرطوبي المزاج في قروحهم الخبيثة مدروسا بالشحم ، وإذا درس ورقه مع الشحم ووضع على أورام العنق البلغمية والخنازير والغدد ألحمها وحللها كلها ، وكذا يحلل الأورام البلغمية في سائر الجسم إلا أنه في أورام العنق والإبط والأربية أقوى ، وكذا يوضع أيضا على فسوخ العضل ولا سيما في الأعضاء الصلبة فينفعها ، وإذا سحق أصله وخلط بأحد الأدوية العطرية[٥] المقوية كالسُّنبل[٦] والاسطوخودوس[٧] والإذخ[٨] . وعجن بعسل ولعق وافق وحلل ما في الصدر من البلغم اللزج وأخرجه بالنفث ونفع من أوجاعه الحادثة عنه وسهل نفثه ، وينفع من أوجاع المعدة والمائدة ويفتح بهذه الصفة سدد الكلى ويضمر الطحال وينفع من أوجاعه منفعة بالغة ، وإذا تغرغر به وبطبيخ سائر أجزائه كلها نقى الدماغ وأحدر منه بلغما لزجا ، وماء ورقه إذا

---

(١) أزهاره .
(٢) نوع من الأدم ، معرَّب .
(٣) نوع من جنس الصعتر Thymus
(٤) نوع من جنس البردقوش Origanum
(٥) النباتات الثلاث التالية التي ذكرت نباتات تحتوي على زيوت طيارة لها رائحة عطرية .
(٦) Meum athamanticum
(٧) Lavandula stoechas
(٨) Cymbopogon shoenanths ويعرف باسم حلف بر .